

٢٤٤
٥٦٥

جامعة القدس يوسف

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

فروع الآداب العربية

بيروت

١
٢٩٥١

دور شجر النسيب في قيام دولة المماليك

في مصر

رسالة ماجستير في التاريخ
أعدها

محمد عبد الله حمزة

أشرف عليها

الأب الدكتور ج. م. فيني

شكر وتقدير

لا يسعني وقد أوشكت هذه الدراسة على الانتهاء ، إلا وأن أتقدم بخالص
الشكر وعظيم الامتنان الى الاستاذ الفاضل الاب الدكتور ج ، م ، ، فيه المشرف
على هذه الرسالة ، والذي كان لارشاداته القيمة وتوجيهاته السديدة الأثر
الفعال في اخراج هذه الدراسة الى حيز الوجود ، فقد واكبها منذ أن كانت
فكرة الى أن أصبحت بصورتها الحالية . فاني مدين لهذا الاستاذ الجليل
في كثير ما قد به التي من عنايته وتوجيهه .

كما وأتقدم بالشكر الجزيل للدكتورة نشأت الخطيب ، والتي كان لملاحظاتها
وارشاداتها الدور القيم في توجيه مسار هذه الدراسة واثرائها وتحسين منهجيتها
فاليها التقدير والامتنان .

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر والعرفان لكل من ساهم في اسداء خدمة أو
توجيه أو توفير صدر أو مرجع احتاجت اليه هذه الدراسة ، الى كل هؤلاء ،
ومخاصة المشرفين على مكتبي الجامعة الاردنية وكلية القدس التقدير والاحترام .

والله من وراء القصد

تمهيد

المقدمة

اولا : موضوع البحث

ثانيا : مصادر البحث

الفصل الأول : الرق في العهد الايوبي وظهور شجر الدر

- نشأة الرق

- تطور ظاهرة الرق في الاسلام

- الرقيق في خدمة الدولة

- المرأة المملوكية

- تطور سيادة المماليك في مصر

- سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب

مولده

توليئه السلطة

اعتقاله وسجنه

- عودة الملك الصالح الى مصر

- مصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب

دور شجر الدر في ادارة الدولة بعد وفاة الملك الصالح

شجر الدر وعلاقتها بتوران شاه ابن الملك الصالح

- معركة المنصورة ودور توران شاه فيها

- نهاية حكم توران شاه

الفصل الثاني : قيام دولة المماليك في مصر وتولي شجر الدر السلطة

شجر الدر . . نسبها ، من هو أبوها ، نشأتها .

تولي شجر الدر السلطة وسياستها في الحكم والادارة .

٦٤ - ٦٢	- الحياة السياسية في مصر بعد تنازل شجر الدر عن السلطة
٦٧ - ٦٥	- علاقة عز الدين آيبك بأمراء الشام
	- الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في عهدى الصالح نجم الدين
٦٨	وشجر الدر
٧٢ - ٦٨	- الحياة الثقافية
٧٧ - ٧٤	- الحياة الاجتماعية والاقتصادية
٨٢ - ٧٨	- العمارة زمن الصالح نجم الدين أيوب وشجر الدر
٨٢ - ٧٨	- الروضة
٨٢	- ضريح الصالح نجم الدين أيوب
٨٢	- قبة شجر الدر
٨٦ - ٨٤	- نهاية الملك " المعز " عز الدين آيبك
٨٧	- مقتل شجر الدر
٩٢ - ٨٨	- الخاتمة
١٢ - ٩٣	- ملاحق
٩ - ١١٣	- مصادر ومراجع البحث

كان الرقيق في بداية ظهور الرق عبر فترات متتالية من الزمن يستعملون في اعمال السخرة ، الا انهم اخذوا مع مرور الوقت يكتسبون اهمية زائدة ، ويلعبون دورا هاما في بناء الدول ، ان كانوا يشكلون ضرورة اقتصادية اجتماعية اساسية على نطاق دولي .

ومع مرور الزمن بدأ هؤلاء الرقيق يشبتون وجودهم كقوة فاعلة في الدولة ، فأخذ شأنهم يعلو وقوتهم تزداد ، حتى أصبحوا يلعبون دورا أساسيا في مقاليد الحكم وتعيين السلاطين أنفسهم الى أن تمكنوا من الانفراد في ادارة شؤون الولايات ، وأصبح لهم النفوذ المطلق ، وفي ايديهم التحكم في شؤون السلطان نفسه ، بحيث تمكن بعضهم من تقلد زمام الامور في الدولة ، وتأسيس دويلات وامارات متعددة ، وأصبحوا مؤسسي دول .

وما يلفت النظر في ظاهرة الممالك ما كانت عليه المرأة المملوكية ، حيث كانت الجارية تتمتع بنفوذ كبير لدى الحكام الى حد انها كانت تتدخل في تسيير دفة الحكم من وراء الكواليس ، لعدم تقبل المجتمع الاسلامي آنذاك ، اشتراك النساء في الحكم ، وقد ظهر من بين تلك الجوارى المملوكات بعض شاهير النساء اللواتي استطعن استلام مقاليد الحكم ، والجلوس على كرسي الملك من مثل الملكة رضية الدين بنت السلطان التمش التي صادف عهد حكمها وجود امرأة مملوكية كانت على جانب عظيم من الجمال ، والذكاء تدعى شجر الدر ، وقد كانت صاحبة حظوة عند الملك الايوبي الصالح نجم الدين ايوب ، وقد بلغت من الشأو والمكانة ما جعلها تسيّر شؤون الدولة الأيوبية بما فيها ارسال الجيوش للحرب .

وقد دفعني للبحث في موضوع شجر الدر ما كان لها من دور في سياسة الدولة الايوبية ، ونقل الملك الى الممالك عدة امور منها : تلك الشخصية الغدة التي كانت تتمتع بها شجر الدر ، والتي كانت تتسم بالجمال ، والذكاء والدهاء والحزم ، بحيث أثبتت أنها شخصية لم تكن اقل من غيرها من الشخصيات القيادية عبر التاريخ ، ومنها ان شجر الدر لم تكن اول امرأة تولت الحكم في العهد الاسلامي فحسب ، بل انها اول امرأة جارية ، أو مملوكة استطاعت ان تفرض نفسها على الملوك ، وان تتدخل في شؤونهم الخاصة ، وشؤون دولتهم الى ان تمكنت من اعتلاء كرسي العرش في دولة اسلامية كظاهرة فريدة من نوعها ، وغير مقبولة لدى شعور المسلمين - اللهم اذا ما استثنينا ظاهرة الملكة رضية الدين

* رضية شمس الدين التمش ، سلطانة هندية عاشت ابان دولة المماليك التي اقامها قطب الدين ايبك على انقاض الدولة الغورية ، وهي ابنة شمس الدين التمش

بنت السلطان التمش التي كانت معاصرة لها ، ومن العوامل ايضا كون شجر الدر حلقة الوصل بين عهدين مختلفين ان استطاعت نقل السلطة والملك من الايوبيين الاسياد الى عبيد هم المماليك ، وذلك عندما لاحت لها أول فرصة مناسبة على أثر وفاة الملك الايوبي الصالح نجم الدين ، حيث دفعها ولاءها لابناء جلدتها المماليك الى العمل على نقل السلطة من الايوبيين الى المماليك البحرية ، فقامت لهم اول دولة على حساب اسيادهم جلست هي على كرسي عرشها ، وعطت بكل ما اوتيت من دها وحنكة على ترسيخ اركان هذه الدولة حتى عندما اقتضى الامر تنازلها عن العرش .

وما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال صعوبة الكتابة في هذا الموضوع نظرا لعدة عوامل : لعل اهمها قصر الفترة التي تولت فيها شجر الدر الحكم ، وبالتالي قلّة التفجيرات والتطورات التي حدثت خلال عهدها في مختلف نواحي الحياة السياسية ، والثقافية ، والحضارية ، وانها مكها منذ عهد الملك الصالح نجم الدين بتأمين الحماية للبلاد من خطر الغزو الفرنسي ، وبسط الامن والاستقرار الداخلي وهذا ما جعلنا نلجأ الى حكم القياس بتطبيق السابق على اللاحق أثناء دراستنا لوضع دولة المماليك ، بحيث انها كانت متأثرة الى حد بعيد بالنمط الحضاري والثقافي الذي ساد الدولة الايوبية .

أولاً : موضوع البحث :

=====

قبيل وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م بدأت بوادر انقسام الدولة الأيوبية على نفسها تظهر ، حيث ولي العادل أمر حلب سنة ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م ، وولي تقي الدين عمرا بن أخ السلطان صلاح الدين بأمر منه مصر ، ثم ما لبث أن عاد العادل إلى مصر في صحبة العزيز عثمان بن صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ - ١١٨٨ م بعدما تبين فشل تقي الدين في إدارة البلاد .

ولقد أعد السلطان صلاح الدين أولاده ليتولوا الحكم من بعده ، فتولى ابنه الأفضل ، وهو أكبر أولاده حكم دمشق ، وتولى العزيز حكم مصر ، وتولى الظاهر غازي حكم حلب ، وأما بقية المناطق كحماة وحمص وعلبك فقد وليها أبناء عمومتهم ، وولي اليمن عمهم طختكين بن أيوب ، وظلت ديار بكر والجزيرة اقطاعا للعادل .

وبالرغم من هذه الانقسامات بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي إلا أن مصر ظلت أعظم المناطق أهمية ، ولم تضر سنة على وفاته حتى دبت عوامل الفرقة والشقاق بين الأشقاء وسائر أفراد الأسرة ، فحاصر العزيز دمشق وكان يحكمها الأفضل ، وتدخل العادل والظاهر - صاحب حلب - في وقف النزاع بين الأخوين ، غير أن الحرب عادت لتتجدد بينهما ، وانتهاز العادل هذه الفرصة للعمل على توحيد الإمبراطورية تحت زعامته ، بعد ما فشلت مساعيه في حل النزاع بين أولاد أخيه - خاصة وأن الظروف السياسية كانت تحتم آنذاك مثل هذه الخطوة ، وذلك لأهمية مصر في مناوأة الصليبيين ووقف حملاتهم على الشرق . ولقد أدرك العادل الفرق بين ابني أخيه الأفضل والعزيز ، فبينما كان الأول غارقا في الملذات كان الثاني يتمتع بالسجيا والخصال الحميدة ، فاستغل العادل الثاني على حساب الأول حيث زين للعزيز احتلال دمشق ، وما أن تمكن العزيز من ذلك حتى ملكها العادل بالنيابة عنه ، ولما توفي العزيز عاد العادل سرعا إلى مصر في الوقت الذي قدم فيه الأفضل إلى القاهرة وصيا على ابن العزيز ، وقد استغل الأفضل هذه الظروف لإعادة سلطانه في دمشق متحالفا مع الظاهر صاحب حلب ، ولكن العادل كان أسبق

منهما في الوصول الى المدينة ، والسيطرة عليها ، فعاد الافضل الى مصر خائبا حتى أنه غادرها نهائيا سنة ٥٩٦ هـ ، وأضحى العادل سيدا على امبراطورية صلاح الدين جميعها سنة ٥٩٦ هـ ، وظلت بقية المناطق على استقلالها بمقابل الاعتراف بزعامة العادل ، والتعهد بتقديم المعونة الحربية اليه كلما طلب ذلك .

على أن دولة العادل لم تنج من الكثير من المشاكل كتهديد الصليبيين وانخفاض مياه النيل وانتشار الاوبئة والمجاعات وهجرة السكان .

وفي سنة ٦١٥ هـ - ١٢١٨ م توفي الملك العادل وولي الحكم من بعده ابنه الكامل الذي عقد صلحا مع الصليبيين جليا بموجبه عن دمياط سنة ٦١٨ هـ - ١٢٢١ م ، كما عقد مع الامبراطور فردريك الثاني معاهدة سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٢٨ م كفلت له تأمين ممتلكاته في الشام ، ولكن الكامل لم يسلم من مؤامرات أقاربه ضده ، ومات في دمشق سنة ٦٣٥ هـ بعدما حكم حصر اربعين عاما ، عشرون منها نائبا عن أبيه العادل والاخرى سلطانا عليها .

وتولى السلطة بعد الكامل ابنه العادل ، الذي لم يدم في السلطة غير عامين ، ثم تولى بعده أخوه الصالح السلطنة سنة ٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م . وهو زوج شجر الدر - موضوع البحث - .

وخلال هذه الظروف من المشاكل والفتن الداخلية فقد حرص كل حاكم أو ملك على تكوين عصبية خاصة به ، يعتمد عليها في المحافظة على سلطانه .

ولم يجد الحكام في ذلك الوقت من وسيلة لتحقيق هذا الهدف إلا عن طريق الاكثار من شراء الممالك ، فاشترى منهم أعدادا كبيرة جدا وعنوا بتنشئتهم وتدريبهم وتربيتهم تربية خاصة ليكونوا لهم نصيرا ومؤيدا . ولذلك فقد شهدت السنوات الاخيرة من القرن السادس الهجري والنصف الاول من القرن السابع (القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) ، ازدياد نفوذ الممالك في مختلف الدول والامارات الاسلامية ، وسرعان ما أصبح لهؤلاء الممالك الكلمة المسموعة والرأي النافذ . وهم الذين تدخلوا في اكثر من مرة لراحة سلطان وتعيين آخر مكانه مثلما حصل عندما

دبروا مؤامرة لعزل العادل الثاني واحلال الملك الصالح نجم الدين أيوب مكانه .

والصالح نجم الدين أيوب صاحب الفضل في تكوين فرقة من المماليك عرفت بالممالك البحرية ، حتى قيل عنه : " أنه اشترى من الممالك الترك ما لم يشتري أحد من الممالك مثله من قبل حتى عاد أكثر حيشه ماليكه ، وذلك لكثرة ما جرب من غدر الاكراد والخوارزمية وغيرهم من الحيوش " .

ومما يذكر عن الممالك الاترك انهم كانوا يمتازون عن غيرهم من طوائف الترك بحسن الطلعة وجمال الهيئة وقوة البأس ، والشجاعة النادرة ، ويفضل هذه الصفات والظروف الداخلية والخارجية ، والتي أحاطت بمصر آنذاك ، تمكن هؤلاء الممالك من الاستئثار بحكمها ، حتى انهم لم يلبثوا بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب من الوصول الى السلطنة ذاتها ، وظل الممالك مدة طويلة يمثلون آرسقراطية حاكمة في مصر بوصفهم القوة العسكرية والجهاز الحربي الذي استأثر بحكم البلاد والدفاع عن حياضها .

على أن من الواجب ذكره ان شراء السلاطين للممالك لم يتوقف على الرجال منهم فحسب بل النساء أيضا ، ولعل من أشهر تلك النساء شجر الدر - موضوع الرسالة - والتي لم يتوقف دورها عند حد كونها امرأة ملوكة ، بل كان لها دورها الكبير في تسيير دفة الحكم في فترة من فترات التاريخ الاسلامي وفي بقعة من اعظم بقاع العالم الاسلامي اهمية في التاريخ ، وهي مصر ، سواء في عهد زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، أو بعد وفاته .

ان هذه الظاهرة التاريخية في تاريخ العالم الاسلامي والمتثلة في تفلغل الممالك في المجتمع الاسلامي ووصولهم الى السلطة واستئثارهم بها مدة غير وجيزة من الزمن ويفضل امرأة منهم هي - شجر الدر - دفعتني لاختيار هذا الموضوع حيث قسمته الى فصلين :

أما الفصل الاول : فيبحث في ظاهرة الرق بصورة عامة مع التركيز على ظاهرة

المرأة المملوكة ودورها في الحياة السياسية ضمن تطوّر ظاهرة الرق في الإسلام وخدمتهم للدولة ، وتتبع تطوّر سيادة الماليك في مصر منذ قيام دولة بني العباس وانتقال مقاليد الحكم فيها إلى أيدي عناصر غير عربية كانت من الفرس باديء الأمر ثم من الأتراك ، الذين كان بعضهم من الرقيق الماليك . وتطوّر هذه الظاهرة بشكل أوضح في العهود اللاحقة كما هو الحال في عهد أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ) ، ولما آلت السلطة إلى الفاطميين وأصبحت الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في مصر ، تتكون من أشرف العلويين والمفاربة ، أصبح الجيش الفاطمي يتكون في معظمه من المرتزقة الماليك الذين ارتفع شأنهم وبرز دورهم أكثر في عهد الدولة الأيوبية ، وبالذات في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، والذي أفردت له جزءاً خاصاً في البحث ، تناولت فيه مولده ، وتوليده السلطة ، واعتقاله ، وسجنه في قلعة البرك ، ومرافقة زوجته شجر الدر له في السجن ، وكذلك فقد تناولت في هذا الفصل شجر الدر ودورها في إدارة الدولة أثناء مرض الملك الصالح وبعد وفاته ، ثم علاقتها بتوران شاه ، ودورها في نهاية حكمه ، وتفرد ها بالسلطة بعده ، حيث أضحت بذلك الحلقة الواصلة بين الأيوبيين والماليك .

وأما الفصل الثاني : فيبحث في قيام دولة الماليك في مصر وتولي شجر

الدر لها ، وفيه تناولت شجر الدر ، نسبها ونشأتها ، وحللت الروايات التي توفرت بالخصوص ، حيث وجدت تضارباً فيما بينها ، فبعض الروايات يذكر أنها أرمنية والبعض الآخر يذكر بانها تركية . كما تناولت في هذا الفصل موضوع توليها للسلطة وسياستها للحكم والإدارة خلال المدة التي حكمتها ، ثم الحياة السياسية في مصر بعد تنازل شجر الدر عن السلطة بعد زواجها من المعز عز الدين أيوب .

وكذلك فقد تناولت موضوع الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في عهد الصالح نجم الدين أيوب وشجر الدر ، وذلك لصعوبة الفصل بين عهديهما ، ولأن الفترة التي حكمتها شجر الدر لم تتجاوز ثمانية أيام ، وهذا يغني البحث في أسباب عدم الفصل بين العهدين ، حيث أن المدة التي حكمتها قصيرة جداً ، يصعب من خلالها تحديد الملامح الأدبية أو الفنية أو الثقافية خلالها ، بعد ها تناولت

العمارة زمن الصالح نجم الدين أيوب وشجر الدر مع عدم الفصل بينهما لذات السبب ،
ثم تناولت موضوع نهاية الملك " المعز " عز الدين آيك ، وبينت من خلاله الاسباب
التي أدت الى مقتله بتوجيه من زوجه شجر الدر ، ومقتل شجر الدر بتوجيه من
ابن الملك " المعز " من زوجته الثانية .

ومقتل شجر الدر يمكن القول بأن الحلقة التي كانت تصل بين الايوبيين
والمماليك لم تعد موجودة .

والحزب الاخير من البحث خصصته للخاتمة ولقائمة مصادر ومراجع البحث ،
وبعض الملاحق الخاصة بالموضوع مثل صور لبعض العماثر في زمن الصالح نجم
الدين أيوب وشجر الدر .

لعل من النزاهة القول بان المصادر التي تتحدث عن فترة الايوبيين والمماليك كثيرة جدا ، ولكنه بالنظر الى موضوع البحث ، وقصر الفترة الزمنية التي يعالجها ، ولتداخل الفترة المعينة بالفترات التاريخية التي سبقتها والفترات اللاحقة لها ، فقد واجهت الكثير من الصعاب في جمع الروايات ذات العلاقة بالموضوع ، وخاصة ما يتعلق منها بالنواحي الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية . ولعل من أهم المصادر التي أفادتني في البحث :-

ابن تغري بردي :

جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن عبد الله (ت ٨٧٤ / ١٤٧٠ م) مؤرخ وباحث من اهل القاهرة كان ابوه تغري بردي مملوكا روميا اشتراه السلطان بركات ، وجعله من مماليكه ومن أبرز أعماله جيشه (١) درس الفقه والادب ، وقرأ الحديث ، وولع بالتاريخ ألف كتابا قيمة مثل المنهل الصافي . والمستوفي بعد الوافي ، ومورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة ، وحوادث الدهور في هدى الايام والشهور وهو صاحب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، حيث وصف فيه تاريخ مصر ويعتبر هذا المصدر من أهم مؤلفاته ، يؤرخ فيه لمصر منذ الفتح الاسلامي الى الدولة الاشرفية سنة ٥٨٧ هـ ورتبه على السنين ، وقسم كتابه الى عهود ، حيث جعل كل عهد من عهود الملوك والسلاطين فصلا قائما بذاته ، وذكر السنين وحوادثها حتى وفاة الملك أو السلطان ، ثم يسرد أخباره في ترجمة متصلة . واعتمد ابن تغري بردي في مصادره على المقرئ والعيني وابن حجر العسقلاني (٢) .

أبوشامة :

شهاب الدين ابو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) .

مؤرخ محدث وباحث مقدسي الأصل ولد بدمشق ونشأ وتوفي فيها ، تولى مشيخة دار الحديث الاشرفية له عدة تصانيف اشتهر منها كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، أرخ فيه أبوشامة لدولتي نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ورتب كتابه حسب السنوات من عام ٥٤٢ هـ الى عام ٥٨٩ هـ ويعتبر كتابه من المصادر الاساسية لتلك الفترة (٣) .

الذهبي :

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م)
مؤلف كتاب تاريخ الأسلام ، وهو مخطوط طبع منه ستة أجزاء . رتب الذهبي كتابه على
السنين وذكر أحداث كل سنة وترجم للمشاهير والأعلام ، وجعلهم على طبقات ، حيث
اعتمد بترتيبه الفقرات الزمنية كل فترة عشر سنوات ، وتضم طبقة من التراجم مرتبة حسب
حروف المعجم (ترتيباً هجائياً) (١) .

والكتاب قيم جامع والمصادر التي اعتمد عليها ابن الساعي ، والموفق بن عبد
اللطيف البغدادي . وابن خلكان وابن القوطي .

ابن اياس :

أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م) .
باحث ، ومؤرخ مصري ، صاحب كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور الذي يبحث
في تاريخ مصر وينحدر من اياس من أصل جركسي وكان أبوه متصلاً بالأمراء ، ورجال الدولة ،
وقد عايش ابن اياس فترة القلاقل التي عمت مصر والشام ابان حكم المماليك ويعتبر كتابه (١)
بدائع الزهور في وقائع الدهور ذا أهمية خاصة في تاريخ مصر وخاصة الفترة الأخيرة من
عصر المماليك ، وسنوات العثمانيين الأولى ، حيث يسرد أخبار الحوادث في حوليات يومها
بعد يوم ، ويعد ابن اياس من المؤرخين القلائل الذين كتبوا بأسهاب عن هذه الفترة
من تاريخ مصر من النواحي السياسية ، والعسكرية ، والإدارية ، والقانونية ، والاقتصادية ،
والثقافية ، والأدبية ، والمعمارية ، والفنية ، ومن المواسم والأعياد والعادات وغيرها من
النواحي الاجتماعية (٢) .

وقد قسم كتابه الى عهود مستقلة ، وذكر السنين بعناوين واضحة ، ومخطأ كبير
ومداد مخالف .

-
- (١) خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .
 - (٢) خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ .
 - (٣) محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .

مكتبة
الاسلام
١٩٦٩
١٩٧٠
١٩٧١

أبو الفداء :

اسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت ٧٣٢ هـ /

١٣٣١ م) .

مؤرخ جغرافي قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين وأطلع على كتب كثيرة فسي الفلسفة ، والدب ، وعلم الهيئة ، وهو صاحب كتاب المختصر في أخبار البشر ، حيث تناول في كتابه فترة ما قبل الاسلام ، ثم تناول تاريخ الاسلام حتى عام ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م وقد رتب كتابه حسب السنوات ويعرف كتابه بتاريخ ابي الفداء ، ويعتبر مصدرا " أساسيا " من مصادر التاريخ الاسلامي خاصة فيما يتعلق بالعهدين الأيوبي والملوكي ، وأعتمد أبو الفداء في هذا الكتاب على عدة مصادر منها الكامل في التاريخ لابن الأثير ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ومفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن مبره (١) .

ابن خلدون :

ولي الدين ابو زيد عبد الرحمن محمد بن محمد الحضرمي الأشبيلي (ت ٨٠٨ هـ

/ ١٤٠٦ م) .

مؤرخ وفيلسوف ، وعالم اجتماعي ، ولد ونشأ في تونس ، وأرتحل بين فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس . قدم الى مصر فأكرمت وفادته من قبل سلطانها الظاهر بريقوق وتولى قضاء المالكية ، وله كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر . الذي اشتهر به ، وقد طبع الكتاب في سبع عشرة محلدات .

المقدمة ، وتبحث في علم الاجتماع ، حيث تناول العمران ، والمكسب والمعاش ، والصناعات والعلوم . وعرض في الاجزاء الاخرى . الاخبار التاريخية ، حيث ذكر اخبار العرب منذ الخليقة الى اواخر عهدهم في الاندلس ، حيث انتهى السى بداية القرن التاسع الهجري أوائل القرن الخامس عشر الميلادي ، ولم يتبع ابن خلدون المؤرخين السابقين له في ترتيب مواد كتابه بحسب السنين ، بل قسمه الى مواضيع ودول . ويعتبر كتابه مصدرا " هاما " في تاريخ العرب والاقليم الاسلامية .

(١) أبو الفداء ، اسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب ، المختصر في

أخبار البشر ، بيروت ، دار المعرفة ، د . ت . م . ج . ١ .

المقريزي :

تقي الدين ابو العباس احمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) مؤرخ الديار المصرية ولد ونشأ في القاهرة ، وتولى عدة مناصب في الدولة منها الحسبة والخطابة والامانة ، ثم عين مدرسا في مدرسة الحديث . اتصل بالملك الظاهر برقوق ، ودخل دمشق مع ولده الناصر سنة ٨١٠ هـ ، وعرض عليه القضاء فرفض ، وله كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، (١) وقد رتب به بخط كبير ، وختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لاصحابها ، ثم ينتقل الى العالم ويجعله عنوانا " جديدا " ، ويسجل حوادثه وأحيانا كان يفتتح السنة بذكر الوظائف الكبرى ومن عليها في حالة ابتداء السنة بسلطان جديد نظرا للتغيير والتبديل الذي يحدث لموظفي السلطنة ، ويورد المقريزي عبارات افتتاحية عن أصل السلطان وماضيه ثم ينتقل الى ذكر الحوادث والاخبار حسب ترتيبها الزمني (٢) .

صلاح الدين الصفدي :

خليل بن أيك بن عبد الله (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) . أديب ومؤرخ ، ولد في صفد بفلسطين ، وينتسب اليها ، وتعلم في دمشق ، ومهر في صناعة الرسم ، ودروس الادب ، وتراجم الاعيان ، وتولى ديوان الانشا في صفد ، ومصر وحلب . ألف حوالي مئتي مصنفا منها الوافي بالوفيات ، ويقع في ثلاثين مجلدا نشر فيه الأجزاء من واحد الى ثمانية ٨٠ ، ١٥٠ والباقي مخطوط . ورتب كتابه الوافي بالوفيات على حروف المعجم (ترتيبا هجائيا) .

وترجم الصفدي للعلماء ، والامراء ، والوزراء ، والحفاظ ، والشعراء ، والنشراء ، والقضاة ، والمغنيين . وذكر التراجم موجزة مركزة دون ذكر أسانيد اخبارها . والكتاب جامع قيم لا يستغني عنه المؤرخ في استقصاء المعلومات .

- (١) خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٧٢ .
- (٢) المقريزي تقي الدين ابو العباس احمد ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ط ٢ ، القاهرة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، د . ت . ج ١ .
- (٣) خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ .
- (٤) محمد عجاج الخطيب ، مخارج الكتب المبررة ، ط ١ ، ٢٨٤ .

ابن العماد الحنبلي

ابو الفلاح عبد الحي بن احمد بن محمد الحنبلي (ت ١٠٨٩ - ١٦٧٩) .

مؤرخ فقيه ، عالم بالادب ولد بدمشق وأقام في القاهرة وتوفي وهو صاحب كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب . رتبته على السنين ، وابتدأ فيه من السنة الأولى وحتى سنة ألف للهجرة ، وذكر فيه ما وقع من الحوادث وتراجم الأعيان من العلماء والملوك . وقد اعتمد ابن العماد في كتابه على المصادر التاريخية ، وطبقات الاعلام للإمام الذهبي ، وكتاب الروضتين لابن شامة ووفيات الأعيان لابن خلكان وتاريخ الطبري والكمال لابن الأثير وغيرهم .

ابن مطروح

جمال الدين ابو الحسن يحيى بن عيسى بن ابراهيم (ت ٦٤٩ هـ - ١٢٥١ م) .

شاعر مصري من أهل الصعيد ، ولد بأسسوط ، نشأ . وأقام في قصر ، اتصل بالملك الصالح أيوب ، وتنقل معه ، وخدمه عندما ناب عن أبيه الكامل ، وعينه الملك الصالح ناظراً على الخزانة ، وسافر مع الملك الصالح إلى بلاد ما بين النهرين ، ثم عين وزيراً لنائب دمشق ، وتحسنت أحواله فيها ، وعندما اضطرب الملك الصالح محاربة صاحب حصن سار ابن مطروح في الحملة الموجهة إليه ، ثم عاد إلى مصر ، إلى أن مات الملك الصالح وتوفي بالقاهرة .

(١) خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٦١ .

(٢) ابن العماد الحنبلي ، ابو الفلاح عبد الحي بن احمد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط ٢ ، بيروت ، دار المسيرة ، ١٩٧٩ ، ج ١ ، ص ٨ .

(٣) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٧ ، ج ٢ ، ج ٣ ، ص ١٨ .

البهاء زهير

بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المهدي العتكي (ت ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م) .

شاعر ولد بمكة ، ونشأ بقوص مصر ، وأتصل بخدمة الملك الصالح أيوب ، فقربه منه ، وجعله من خاصة كتابه ، وظل عنده حتى وفاته ، بعدها اعتزل البهاء زهير في بيته حتى أدركه الموت (١) . وعرف عنه أنه من فضلاء عصره ، وأحسنهم نظاماً ، ونشراً ، وخطاً ، ومن أكثر الشعراء مروءة ، طبع ديوانه عدة مرات ، وترجم إلى اللغة الإنجليزية ، حيث طبع في مطبعة كمبريدج سنة ١٨٧٦ في مجلدين (٢) .

اليويني

قطب الدين ابو الفتح موسى بن محمد بن أبي الحسين احمد البعلبكي

(ت ٧٢٦ هـ - ١٣٢٦ م)

مؤرخ أصله من بعلبك ، ولد وتوفي فيها ، له مختصر مرآة الزمان وهو مخطوط جزآن . وله ذيل مرآة الزمان ، مطبوع في أربعة مجلدات وهو تكملة لكتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، ويبتدئ الكتاب بحوادث عام ٦٥٤ هـ - ١٣٢٦ م) وينتهي بحوادث ٦٨٦ هـ - ١٢٨٧ م (٣) . يورد فيه المؤرخ الاحداث مرتبة بالسنوات ، وكتابه مليء بالسير ، ومعظم الحوادث السياسية ، ويعتبر الكتاب مصدراً مهماً في الفترة الايوبية ، حيث يذكر المؤلف موقف الايوبيين من السلطنة الجديدة في مصر .

(١) بهاء الدين زهير ، ديوان بهاء الدين زهير ، بيروت ، دار صادر ،

١٩٦٤ ، ص

(٢) جرجي زيدان ، المرجع السابق ، مج ٢ ، ج ٣ ، ص ١٨ .

(٣) خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٨ ، ص ٢٨١ .

ابن كثير

عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن درع القرشي (ت ٧٧٤ هـ -

١٢٠٩ م) .

مؤرخ ، وفقيه ولد في قرية في الشام ، ورحل في طلب العلم ، وله تصانيف كثيرة (١) منها البداية والنهاية ، رتبته على السنين ، وذكر أحداث كل سنة ، وترجم لعلامها وانتهى فيه الى حوادث سنة ٧٦٧ هـ (٢) .

اعتمد ابن كثير في معلوماته على تاريخ الطبري (ت ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م) وابن عساكر (ت ٥٧١ هـ - ١١٧٥ م) ، وابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ - ١٢٣٣ م) ، وابو شامة (ت ٦٦٥ هـ - ١٢٦٦ م) ، بالإضافة الى شاهداته الخاصة ، ويرسم صورة حية للأحداث والمجريات في ذلك الوقت ، طبع كتابه في اربعة عشر مجلداً .

ابن الفارض

شرف الدين ابو حفص عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي (ت ٦٣٢ هـ -

١٢٣٥ م) .

الشاعر المتصوف عمر بن الفارض ، ولد وعاش في مصر ، وكان يلقب بسلطان العاشقين ، كان والده يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام (٣) .

نشأ الشاعر في بيت علم وورع واشتغل بفقه الشافعية ، ثم تصوف . أقام بقاعة الخطابة بالازهر ، وقصده الناس بالزيارة ، وعاصر الملك الكامل ، ويقال بان الكامل كان ينزل بزيارته ، ولا بن الفارض ديوان شعر ، وامتاز شعره بكثرة الجناس والبديع مع الاجادة فيهما (٤) .

(١) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٢) محمد عجاج الخطيب ، المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

(٣) خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٢١٦ .

(٤) جرجي زيدان ، المرجع السابق ، مج ٢ ، ج ١ ، ص ١٧ .

ابو العباس احمد بن محمد بن احمد بن يحيى التلمساني (ت ١٠٤١ هـ -
١٦٣١ م) (١) .

مؤرخ وأديب ، وهو صاحب كتاب نفع الطيب في غصن الاندلس الرطيب ، ويعتبر
هذا الكتاب من المصادر التاريخية الهامة في تاريخ الاندلس منذ الفتح الاسلامي الى
خروج المسلمين منها ، وقد استفدت منه في الحديث عن الجوارى والقيان في باب الرق ،
وقد استمدت المقري معلوماته من عدة كتب تاريخية قيمة ، وجعل كتابه في قسمين يتعرض
في القسم الاول منه لجغرافية الاندلس ، وفتح المسلمين لها ، وولاتها ، وخلفائها الى
ملوك الطوائف وتفرق المسلمين ، وأما القسم الثاني فقد خصه بأخبار الوزير لسان الدين
بن الخطيب . طبع الكتاب في اربعة اجزاء بالمطبعة السليقة بالقاهرة سنة
(١٣٧٩ هـ - ١٩٦٩ م) (٢)

سبط ابن الجوزي :

شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزوغلي بن عبد الله (ت ٦٥٤ هـ -
١٢٥٦ م) .

مؤرخ ، ولد ونشأ في بغداد ، انتقل الى دمشق ، واستوطن ، وتوفي فيها (٣)
وهو صاحب كتاب مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، وقد جمع فيه كتب الطبقات ، والحوادث
السياسية ، ورتبه على السنين ، حيث بدأ يذكر الحوادث السياسية ، ثم يترجم للوفيات
واعتمد على مصادر كثيرة منها تاريخ جده ابي الفرج عبيد الرحمن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ -
٦١٠١ م) وتاريخ ابن القلانسي ، والعماد الاصفهاني .

(١) خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

(٢) محمد عجاج الخطيب ، المرجع السابق ، ص ٣٧٣ .

(٣) خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ .

القلقشندی

شهاب الدين ابو العباس بن احمد بن علي (ت ٨٢١ هـ - ١٢١٨ م) .

مؤرخ ، وأديب ، ومباني ، ولد في قلقيشندة قرب القاهرة ، نشأ في بيت علم ، وأدب ، وله تصانيف كثيرة اشتهر بموسوعته : صبح الاعشى في صناعة الانشاء . وقد تولى منصب ديوان الانشاء (١) وأرخ له في موسوعته الشهيرة ، حيث ذكر كل ما يتعلق بالوظائف والاحكام في الكتابة ، والمكتبات ، ووصف مصر ولاد الشام ، وركز على النظام السياسي ، والاداري ، وتحدث عن تطور الدولة الاسلامية ، ودولائها فسي المشرق والمغرب ، وتعرض لآظمة الحكم فوصفها وحللها ، وركز على النظام المصري بشكل خاص ، لانه عاش في مصر ، وتعتبر صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، مصدرا أساسيا للتاريخ ، والادارة والحياة الاجتماعية للعالم الاسلامي . والمصادر التي اعتمد عليها القلقشندی في موسوعته ومؤلفاته ياقوت الحموي ، والسعودي ، وابن حوقل ، وابن خرداذبة ، والمهلي ، والادريسي ، والبكري ، وابو الفداء (٢) .

ابن شاكر :

صلاح الدين ابو عبدالله محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ - ٣٦٣ م) . نشأ ابن شاكر في دمشق وتلقى العلم في حلب ودمشق ، وهو مؤرخ باحث يتمتع بذوق ادبي عمل بتجارة الكتب وهو صاحب كتاب " فوات الوفيات والذيل عليها " حيث قام ابن شاكر بجمعه وترتيبه بعد ان اطلع على وفيات الاعيان لابن خلكان فوجد انه لم يذكر احدا من الخلفاء فاحب ان يستدرك عليه ما فاته ويذيل على كتابه فألف كتابه فوات الوفيات ورتبه على حروف الهجاء حيث اشتمل على ٥٧٢ ترجمة (٣) .

ابن الطقطقي

محمد بن علي بن محمد ابن الطباطبائي القلوي (ت ٧٠٩ هـ - ١٣٠٩ م) مؤرخ ، باحث وناقد من اهل الموصل خلف اياه سنة ٦٧٢ هـ في نقابة العلويين بالحلة والنجف وكربلاء ، عاد الى الموصل وألف كتابه الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية ، قسم كتابه الى فصلين ، جعل الفصل الاول في الامور السلطانية والسياسات الملكية ، اما الفصل الثاني فقد تحدث فيه عن الدول الاسلامية دولة (٤) .

(١) خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج (١) ، ص ١٧٢ .

(٢) محمد عجاج الخطيب ، المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .

(٣) خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ٢٦٦ .

ابو الطيب المتنبي

احمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد (ت ٣٥٤هـ - ٩٦٥م)

ولد بالكوفة في محله تسمى كنده ، ونشأ بالشام تنقل في البادية يطلب الادب وعلم العربية وايام الناس ، قال الشعر صبياً ، وفد على سيف الدولة ابن حمدان (صاحب حلب) فمدحه وحظي عنده . وذهب الى مصر فمدح كافور الاخشيدى وطلب منه ان يوليه فلم يول له كافور ففضب ابو الطيب وهجاه .

ويعتبر شعر المتنبي مرآة لعصره ونفسه ونجد في شعره الكثير من الحكم والا مثال التي تتنقلها الاجيال حتي في عصرنا الحاضر . وطبع ديوان ابو الطيب المتنبي وتناوله اشعاره الكثير من الكتاب والادباء بالشعر والتحليل حيث شرحت اشعاره شرحاً وافياً . (١)

ابن واصل

جمال الدين محمد بن سالم بن نصرالله بن سالم (ت ٦٩٧هـ - ١٢٩٨م)

مؤرخ عالم بالمنطق والهندسة ، من فقهاء الشيعة ولد وتوفي في حماه ، اتصل بالملك الظاهر بيبرس فارتبط به سفيراً عند ملك صقلية . ولما عاد لقب بقاضي القضاء وشيخ الشيخ بحماه (٢) .

وهو صاحب كتاب مفرج الكروب في اخبار بني آيوب حيث اورد فيه اخبار

ملوك بني آيوب وجملة من محاسنهم ومناقبتهم ومعاركهم وفتوحاتهم ويعد كتابه مصدر هام لتلك الفترة ويرفد الدراسات بمعلومات قيمة عن بني آيوب .

(١) خير الدين الزركلي . الاعلام . ط ٣ ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ٢٠ .

الفصل الاول

الرق في المهد الايوي وظهور شجر الدر

محتويات الفصل الأول

- نشأة الرّق
- تطور ظاهرة الرّق في الاسلام
- الرقيق في خدمة الدولة
- المرأة المملوكية
- تطور سيادة المماليك في مصر
- سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب
- مولده
- توليه السلطة
- اعتقاله وسجنه
- عودة الملك الصالح الى مصر
- مصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب
- دور شجر الدر في ادارة الدولة بعد وفاة الملك الصالح
- شجر الدر وعلاقتها بثوران شاه ابن الملك الصالح
- معركة المنصورة ودور ثوران شاه فيها
- نهاية حكم ثوران شاه

١. نشأة الرق :

الرق ظاهرة انسانية موغلة في القدم ، ترجع في أصولها الى ذلك الوقت السحيق الذي انتقل فيه الناس من طور الوحشية المطلقة الى عصر الانتاج الوفير المنبثق عن الزراعة ، ففي العصور الأولى كان الانسان يلجأ الى قتل اسيره المنافعه له في المرأة أو على الغداء ، الا انه بعد مرحلة تدجين الحيوانات واستثمار الارض فكر في الاستفادة من هذا الاسير بدلا من التخلص منه ، فأصبح النام يستعملون الاسرى في أعمال السخرة كالفلاحة ، ورعي الحيوانات ، وأعمال البناء ، وغير ذلك من أعمال السخرة التي تعود بالفائدة على الانسان ، مالك الأسير (١) .

وان ظاهرة الرقيق (المعاليك) لا تهمننا في صورتها العامة بقدر ما تهمننا تفاصيلها وجزئياتها ، مثل ظاهرة المرأة المملوكة التي هي أقرب الى المتاع - بالنسبة للرجل الحر - من المشاركة الانسانية المتكافئة ، وكيف تحول هذا المتاع الى سيّد حاكم يواجه دفة الامور السياسية ، ويدير شؤون الدولة رغم انها كانت أقل مكانة في سلم الأولويات الاجتماعية من المرأة الحرة التي لم تكن هي نفسها قادرة على الوصول الى ما وصلت اليه تلك المرأة المملوكة .

وان وصول امرأة مملوكة بالذات الى سدة الحكم في الدولة لم يكن أمرا ميسورا ، ولم يكن من المتوقع أن يتم ذلك ببساطة ويسر ، لا سيما في مجتمع ثيوقراطي التجسّاه ، ارستقراطي النزعة ، برغم ان الشرق مر خلال عهود السحيقة بتحرية حكم النساء عند ما حكمت سميرا ميسر دولة آشور ، وحكمت الزباء ملكة تدمر ، وترعت بلقيس على عرش ملكة سبأ ، الا أن ذلك الشرق لم يكن شرقا اسلاميا في عقيدته الدينية ، حيث ان الاسلام لم يكن قد ظهر بعد .

(١) عبد السلام الترماني ، الرق ماضيه وحاضره ، (عالم المعرفة) ، الكويت ،

٢٠ . تطور ظاهرة الرق في الاسلام :

لقد أقرت جميع المجتمعات القديمة هذه الظاهرة وعملت بها ، والفلسفات التي سبقت الاسلام كرسنها واعتبرتها ظاهرة اجتماعية وضرورة اقتصادية لصون كيان المجتمع ، فاعتبر الفيلسوف الاغريقي أرسطو الرق بنية أساسية في اقتصاد المدينة ، والاسرة ، وأوصى بمعاملة العبد معاملة حسنة من باب الحفاظ على آلة الانتاج التي يمثلها ، بينما لم يشير أفلاطون الى أى شيء من ضرورة حسن معاملة الرقيق ، لانهم كانوا في مدينته الفاضلة مجرد أدوات انتاجية (١) .

ولما جاء الاسلام ، ووجد الرقيق ظاهرة عامة في المجتمع ، اعترف بهذه الظاهرة غير متناقض مع الشريعتين السماويتين اللتين سبقتهما : اليهودية والنصرانية ، غير أنه تجاوزهما بما أقره من قوانين تتعلق بالرقيق . فقد كانت اليهودية تنظر الى الرق نظرة عنصرية ، حيث انه كان يجوز لليهودى ان يسترق غيره لانه ليس يهوديا (٢) وكانت المسيحية تعترف بالعبودية ، وتوصي العبيد بضرورة الخضوع لسيادهم (٣) ، فجاء الاسلام وتجاوز هاتين النظريتين بأن اعتبر الرق عجزا اجتماعيا مؤقتا ينتهي بالعتيق (٤) .

وقد شرع الاسلام القوانين التي من شأنها تضيق دائرة الرق بشتى السبل ، فقد جعل كفارة الظهار ، أو القتل في بعض اشكالها تحرير رقبة عبد (٥) . كما انه عندما شرع تحديد عدد الزوجات سمح للمسلم ان يتزوج ما لديه من امه (٦) في محاولة منه لتحريرهن من العبودية .

-
- (١) نفس المرجع ، ص ١٦ - ٢٣ .
 (٢) سفر التثنية ١٥ : ١٢ - ١٤ .
 (٣) رسالة بطرس الى أهل أفسس ٦ : ٥ - ٧ .
 (٤) عبد السلام الترماني ، نفس المرجع ،
 (٥) المائدة ، رقم الآية ٨٩ " لا يؤخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون أهلكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة " . النساء ، رقم الآية ٩٢ : " وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة " .
 (٦) المؤمنون ، آية رقم ٥ ، ٦ : " والذين هم لفروجهم حافظون ، الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين " .

٣ . الرقيق في خدمة الدولة :

لم يكن ينظر في بادىء الامر للرقيق على انهم أدوات للخدمة ، وان كثيرا ما كان الرقيق يستعرضون في مواكب السادة دلالة على الشراء والوجاهة . وقد كان الخليفة المعتصم أول من أكثر استخدام الرقيق ، وشراهم (١) وكون منهم فرقا حربية استفنى بها عن عنصرى الدولة الرئيسيين الاتراك والفرس ، الذين استفحل شرهم . وقويت شوكتهم في عهود أسلافه ، حتى وصل الامر للتآمر على شخص الخليفة وقتله ، لكي يجعلوا سلطة الخلافة في أيديهم (٢) .

ومن أوائل من استخدموا من الرقيق ولاية يحيى بن داود الحرسى ، الذى ولاه الخليفة المنصور ولاية مصر في الفترة ما بين ١٦٢ - ١٦٤ هـ ، وهو الذى قال فيه المنصور : " انه رجل يخافني ولا يخاف الله " (٣) .

ولقد بلغ الامر بالموالي ، أنهم أخذوا يستبدون في الامرشيا فشيئا ، وينفردون في ادارة الولايات حتى اصبح لهم النفوذ المطلق والتحكم في شئون الخليفة نفسه (٤) . وقد وصل بهم الامر أن تمكن أحدهم وهو كافور الأخشى من تقلد زمام الامور مدة تجاوزت العشرين عاما ، وهذه ظاهرة تاريخية نادرة نوعا .

وتمكن الماليك في الاندلس ، من إقامة عدة دويلات ، تعد مشاريع حكم فردية أنجزتها طموحات أفراد انعتقوا من أغلال العبودية ، وكانوا من الذكاء بحيث انتهزوا فرصا سياسية واجتماعية مضطربة ، فأقاموا لأنفسهم ، وبعضهم لا عقابه من بعده امارات لا تختلف عن مثيلاتها من الامارات المجاورة ، أو المعاصرة لها (٥) .

وهكذا يظهر لنا من تتبع تاريخ ظاهرة الماليك ، أنهم كانوا في بداية الامر خدما ثم أصبحوا يستعملون لتزيين مواكب الاسياد ، ثم حراسا وأعضاء في فرق عسكرية ما جعل منهم مفارمين يفرضون ويبسطون نفوذهم على الخلفاء ، الى أن أصبحوا مؤسسي دول ، ويمكن اعتبار القرن السادس الهجرى بداية لما يصح ان نطلق عليه " عصر سيادة الماليك في شرق وأوسط العالم الاسلامي " .

(١) الخليفة المعتصم أمه أمة تركية ، انظر ابن الطقطقي ، الفخرى في الاداب

السلطانية ، ص ٢٠٩ .

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٢١٤ .

(٣) ابو عمر محمد الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ١٢٣ .

(٤) ابن الطقطقي ، المعصر السعيد ، ص ٣٣ .

(٥) احمد مختار العبادى ، قيام دولة الماليك .

لقد طفق سيل من الجنسين من التزويج على مدن الحزيرة العربية ، وحواسر البلاد العربية الفتية كدمشق والبصرة والكوفة ، ومغداد ، وقد وجدت الجارية البيضاء رعاية واهتماما أكثر مما وجدت الجارية السوداء . فقد كانت الجارية البيضاء تعتبر سرية يأوى إليها السيد كما يأوى إلى زوجته ، ويولد لها الأطفال ، وفي هذه الحالة تصبح أم ولد ، فلا يجوز بيعها ، أو التخلي عنها ، وربما تبوأ منزلة تهاهي منزلة الزوجة الحرة .

وكما أن الجوّاري لعين دورا بارزا في الحياة الاجتماعية ، وتركن آثارا واضحة على الحياة السياسية ، والفنية ، فقد بلغ من منزلة صبح المشكسية في بلاط قرطبة في عهد الدولة الأموية ، أنها كانت هي التي تصرف الأمور في كثير من المسائل (١) ، وجاء في نفح الطيب ، أنه كان لعبد الرحمن الأوسط في الأندلس حارية تدعى طروب كانت تهرم الأمور بالتعاون مع نصر الحقي (٢) .

ونلاحظ مما سبق أن الجوّاري كن يتمتع بنفوذ كبير لدى الحكام ، ولكن من وراء الكواليس ، وذلك لأن الحاكم كان يرفض أن تستبد امرأة برجلته ، ولأن المجتمع لم يكن يقبل حكم النساء ، ولأن الدين لم يعط للمرأة الولاية والحكم والقضاء ، سواء كانت حرة أو مملوكة ، والمرأة الوحيدة التي تمكنت فيها امرأة أن تستبد بالسلطة ، هي عندما تولت رضية الدين بنت السلطان تتش عرش دلهي مدة أربع سنوات في الفترة الواقعة ما بين ٦٣٤ هـ - ٦٣٨ هـ (٣) . ولقد صادف وجود رضية الدين على سدة الحكم وجود شجر الدر في كنف مولاها نجم الدين أيوب ، فتعتبر معاصرة لها إلى حد ما ، وهذا ما جعل ظهور شجر الدر في مصر ليس بالامر الغريب .

(١) لين بول ستانلي ، إسبانيا الإسلامية ،
المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٥ .
(٢) لين بول ستانلي ، المرجع السابق .
(٣)

لم يكن المصريون يجدون مدعاة للاكتراث في استبدال حكم بحكم ، لانهم أدنوا الحكم الغريب ، حتى ألفوه وذلك منذ أن فقدوا استقلالهم الوطني على يد الاحتلال الفارسي في القرن الرابع قبل الميلاد ، ولهذا فقد رحب المصريون بالفتح العربي الاسلامي لمصر ، واعتبروه انقذاً لهم من وطأة حكم الروم البيزنطيين الذين أذاقوهم سوء تسلط . وقوة الحكم رغم أنهم كانوا مسيحيين مثلهم (١) .

واعترف العرب الفاتحون للمصريين بهذا الجليل ، فأحسنوا معاملتهم ، وأقاموا معهم علاقات ودية ، وكان من أبرز مظاهرها ، زواج الرسول - صلى الله عليه وسلم - بامرأة مصرية تدعى مارية القبطية ، قدمها اليه هدية حاكم مصر البيزنطي (٢) .

وقد حاول العرب في بداية حكمهم لمصر أن يتركوا الأمور الادارية في الاقاليم بأيدي الروم ، غير أنه بعد تناقص عدد هؤلاء الروم أما بفعل الوفاة أو بفعل الارتحال عن مصر ، اضطر العرب للاستعانة بالمصريين الاقباط لأول مرة ، ولم يمض وقت حتى ردا للمصريين اعتبارهم ، ومنحوهم حقاً وطنياً حرماً منه منذ مدة تزيد عن سبعة قرون . فكان ذلك من أهم العوامل التي سهلت عملية اختلاط العرب الفاتحين بالسكان الأصليين ، والتزاوج معهم (٣) ، مما كان له أكبر الأثر في اصطباغ مصر بالصبغة العربية الاسلامية .

غير أنه بقيام دولة بني العباس على انقاض الخلافة الاموية العربية أخل بجسم العرب كسادة حاكين ، وانتقلت مقاليد الحكم في الخلافة العباسية الى أيدي عناصر غير عربية كانت من الفرس بادي الأمر ، ثم من الاتراك ، الذين كان بعضهم من الرقيق المماليك (٤) . وأصبح الولاة العباسيون يديرون مصر بواسطة عبيدهم أو أبناء عبيدهم ، وهم قابضون في العاصمة بغداد ، يراقبون الامور في انتظار فرص يعتبرونها أهم وأكبر من ادارة ولاية بعيدة عن مركز الخلافة فعندما صارت ولاية مصر الى الملوك التركي باكبك احوالها الى ملوك تركي آخر هو أحمد بن طولون

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٠٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٠٠ .

(٣) حسن ابزاھيم ، النظم الاسلامية ، ج ٣ ، ص ١٦٥ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٦٦ .

(٢٥٤ - ٢٧٠ هـ) الذي استطاع بحنكته ، ومهارته السياسية أن يستأثر لنفسه بحكم مصر من دون شركائه على الخراج والبريد والقضاء ، واستطاع أن يؤسس في مصر أسرة حاكمة من المماليك الاتراك تعاقب عليها من بعده ، على أريكة مصر أربعة ملوك من أبنائه وأحفاده ، كان آخرهم شيبان بن احمد بن خماروية (١) . وقد عمل ابن طولون على تكوين جيش خاص لحراسته من المرتزقة المماليك ، الذين استقدمهم من منطقة الفور ، والواقعة بين هراة ، وغزنة في أواسط آسيا ، ومنذ ذلك التاريخ وطوال عهد الاسرة الطولونية لم يعد يوجد في مصر عناصر عسكرية من غير هؤلاء المرتزقة من المماليك والاتراك .

ومنذ مدة أصبح المجتمع في مصر ينقسم الى قسمين : طبقة حاكمة وطبقة محكومة ، وكانت الطبقة الحاكمة غريبة الجذور والاصول عن مصر ، وكان من مقومات الانتماء اليها أن يكون أعضاؤها من الوافدين الى مصر على شكل مرتزقة مقاتلين ، أو أرقاء ، اشترى صفارا من أسواق الرقيق ، وألحقوا بخدمة القادة والولاة ، ثم تدرسوا على حمل السلاح ، والدفاع عن السادة ، ثم الانغمس في مفاخرات الحكم والسلطان . ومع مرور الزمن ، وانحسار ، سرعان ما كانت تخسر مركزها الاجتماعي (٢) ، أو تهبط للاندماج مع الطبقة المحكومة .

أما الطبقة المحكومة فكانت تتكون من الاقباط المنحدرين من سكان مصر القدماء ، أو من العرب القادمين الى مصر قبل الاسلام بعده . وإذا لم يشعر أبناء هذه الطبقة بشيء من الفرابية ، وهم يشاهدون ابن طولون يرسي على ضفاف وادي النيل دعائم دولة ملوكة عقدية توارثها ابناؤها ، فإن الفرابية قد اعترتهم بمجيء الملوك الاستاذ كافور وصيا على عرش مصر بعد وفاة الاخشيدي ، وقد ترحموا استفرابهم لمجيء هذا الملوك الذي لا يزال يحتفظ بسيم العبودية على حسده بثورة داخلية (٣) ، برهنت

(١) حسن ابراهيم ، المرجع نفسه ، ص ١٢٦ .

(٢) فقد أقامت القبائل العربية عند ما جاءت مصر في المدن الرئيسية ، وأصبحت تشكل الطبقة الحاكمة السيدة ، بعد أن أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء ، انحسرت هذه القبائل وانسحبت الى ريف مصر ، واندمجت مع أبناء الطبقة المحكومة ، وامتنعوا عنها الفلاحة ونشروا الدين الاسلامي بين فلاحي مصر من الاقباط .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٤ ، ص ١٢٠ .

على جدارة كافور وأثبتت قدرته على إدارة دفة الحكم . ولم يكن السبب في رفض
الاهالي لهذا الملك كون كافور من الرقيق المماليك ، إذ أن الناس قد تعودوا على
سيطرة هذا الصنف من البشر الذي احترف افراده السياسة والحرب ، وتصدروا الواجبة ،
بل كان السبب هذه المرة كون هذا الملك المملوك أسود اللون ، وهو المملوك الذي تعود
الناس أن يروه مكرسا للخدمة في البيوت ، والقيام بالأعمال الشاقة في المدن والمزارع .
ولقد عبر الشاعر المعروف ابو الطيب المتنبي عن استغرابه الشديد بسيادة هذا
الاسود في قصيدة هجائية خص بها كافور بعد أن يثمن من عداائه (١) جاء فيها :

من علم الاسود المخصي مكرمة أقومه البيض أم ابائهم الصييد
أم اذنه في يد النحاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود

الى أن يقول :-

وذاك ان الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

ولكن هذا التجريح والتقريع لا ينبغي عن كافور حسن اخلاقه ، ولطف معاشرته ،
وطيب كرمه وعطائه ، وخبرته السياسية التي دلت على راحة عقله وفطنته ، وعلى
ذكائه ، ودهائه (٢) ، وهذا ما دفع المتنبي لمدح كافور قبل أن ينقطع بينهما حبل
الود والوصل فقال :-

اذا ترك الانسان اهلا وراة وعم كافور فما يتفرب (٣)

وقال فيه أيضا :-

وان مديح الناس حق وما طلل ومدحك حق ليس فيه كذاب (٤)

ولقد حافظ المماليك على مكانتهم المرموقة في الدول المتعاقبة ، فاختصوا
بالجيش ، وقوات الحرس الملكي ، أو الولاية والإدارة ، وهم وان كانوا يتراجعون قليلا
الى الوراء على خشبة المسرح السياسي ، فسرعان ما كانوا يظهرون ثانية بشكل واضح
مثلا كانوا أو أفضل .

(١) ديوان المتنبي ، بيروت ، ص ٥٠٨ .

(٢) ابن تغري ، بردى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

وهكذا ، تمكن الفاطميون من إقامة دولتهم في مصر في الفترة ما بين ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ وأصبحت الطبقة الأرستقراطية السيدة في مصر تتكون من أشـراف العلويين ، وأشـراف المغاربة الذين انتقلوا مع الخلافة من أفريقيا إلى مصر ، إلا أن هذه الطبقة لم يكن لها أي شأن في شؤون الحكم والإدارة ، وأبقت الخلافة الفاطمية على تشكيل الهيئة الحاكمة منذ عهد ابن طولون والـأخشيدين ، ولكن طعموها بعناصر مغربية مقاطعة من البربر ، وسرعان ما أخذت هذه الهيئة تشير القلائل ، والاضطرابات الداخلية بما يخدم مصالح أفرادها ، مستغلة ضعف الخلفاء من جهة ، وضعف الدولة والوزراء من جهة ثانية ، لا سيما أن معظم هؤلاء كانوا من أهل الذمة ، من اليهود والنصارى ، وفي ظل هذه الأوضاع الملهلة تمكن أحد المالـيك (١) من الوصول إلى أعلى المراتب في الدولة .

ثم أصبح الجيش الفاطمي يتكون في معظمه من المرتزقة المالـيك باستثناء المغاربة الذين أخذوا ينقرضون من الجيش باستقرار الخلافة في مصر ، فقد كان الجيش يتكون من الأتراك والأكراد والـفـز ، والديلم ، والسودان (٢) ، وهي عناصر كانت موجودة أصلاً في الجيش المصري ، منذ الطولونيين والأخشيديين (٣) . وهكذا ترى أنه حتى في عز سيطرة الدولة الفاطمية لم تعد مصر سيطرة المالـيك ، واشتراكهم في تسيير دفة الحكم .

الآن أن مكانتهم ارتفعت أكثر وازداد دورهم ، وعلا شأنهم في عهد الدولة الأيوبية ، ذلك أن الملك الصالح نجم الدين أيوب أدرك الخطر المحدق بدولته بسبب ضعف أخيه السلطان العادل ، وانغمسه في اللهو والمجون ، ونظراً لعدم كثرة

(١) وهو الاستاذ برجوان أستاذ الخليفة الحاكم الذي أصبح فيما بعد مستشاره

الخاص ، انظر حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٨٠ .

(٣) فقد ذكر ابن تغري بردي " يروى أنه كان في جيش الأخشيديين من المالـيك

ثمانية آلاف ، وكان جيش ابن طولون يشتمل على عناصر من النوب والسودان

والروم " ، انظر ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ .

ابناء العشيرة الايويين (١) واعتمادها على الاتباع وأمرء الاقطاع الذين يدينون للعشيرة بالولا (٢)، ونظرا لأن هؤلاء الاتباع أصبح طموحهم في الاستئثار بالحكم لا يقل عن طموح الصالح نجم الدين، فقد وجد هذا الأخير نفسه مضطرا للاستعانة بعناصر مرتزقة لبناء قوته العسكرية، وصادف ذلك عبور الخوارزميين الهاربين من وجه المغول، فاتصل بهم فأزروه أول الأمر، ثم خانوه، وانحازوا الى منافسه (٣)، إلا أن نجم الدين استطاع بحنكته ان يستميلهم الى صفوفه ثانية، ولكن تعامل معهم هذه المرة بذكاء وحنكة، فلم يسمح لهم بالدخول الى المدن والبلدان العامرة. وأدرك أنه لا يستطيع البقاء بلا قوة عسكرية مخلصه يستند اليها في وجه خصومه وخصوم دولته من ابناء عموته ومن الصليبيين والتتار، فأقبل على شراء الممالك الاترك، وجعل منهم أهم عناصر جيشه، وأخذ يؤمرهم ويجعل منهم حرسه، والمحيطين بفسطاطه، وشيّد لهم القلعة في الروضة على النيل، ومن هذه القلعة استمدوا أسهم بعد وفاة نجم الدين صالح، فأصبحوا يعرفون بالممالك البحرية (٤)، وهكذا أصبح الممالك في الدولة الايوية كثيرين، وأصبحوا يتدخلون في تعيين السلطان، إذ أنهم استدعوا الملك الأفضل من حوران، وسلموه مقاليد الحكم في مصر سنة ٥٩٥ هـ (٥)، وأصبح نفوذهم يشبه الى حد كبير نفوذ الاترك في بلاط الخلفاء العباسيين في القرن الثالث الهجري مع ملاحظة أن الاترك في البلاط العباسي لم يكونوا في معظمهم أرقاء بينما كان الممالك الايويون أرقاء برمتهم.

سلام لدير نسائه يونس ورواده اكبحم لدير أيوب بشاري

- (١) كان بنو أيوب عشيرة صغيرة ابتسم لها الحظ وحالفها النجاح عندما استخدم الزنكيون أحد أفرادها وهو يوسف والد القائد الفذ صلاح الدين وقد أدى الايويون خدمات جليلة لآل زنكي في كل من دمشق وحلب، وكان أهم هذه الخدمات اخضاع مصر للفاطميين لآل زنكي ثم استطاع صلاح الدين أن ينفرد بحكم مصر ويتوسع في الشام والاقليم المجاورة حتى استطاع ارجاع بيت المقدس من الصليبيين.
- (٢) سعيد عاشور، الايويون والممالك في مصر والشام، حسن ابراهيم، المرجع السابق، ص ٣١٤.
- (٣) ابوشامة، كتاب الروضتين، ج ١، ص ٢٢١.
- (٤) السيد الباز العربي، مصر في عصر الايويين، ص ١٤٣.
- (٥) المقرئ، السلوك، ج ١، ص ١٤٦ - ١٤٧.

ولقد ظهر تدخل هؤلاء الماليك في شؤون الدولة بشكل واضح بعد وفاة الملك الصالح ، إذ أنه بعد وفاته مباشرة ، قامت بتضريف أمور الدولة ، وتسيير دفة الحكم زوجته ، أو بالأحرى مملوكته شجر الدر التي كانت مملوكة للمعتصم من قبله ، وقد كانت أقرب في مشاعرها ، وولائها للماليك الاتراك منها للسادة الايوبيين . ويرى بعض المؤرخين أن هذه المرأة المملوكة كانت رأس دولة الماليك البحرية ، وأول من ملك مصر من ملوك الترك الماليك (١) ، وكان يمكن أن تناول فترة حكمها لولا أن طائفة أخرى من الماليك تعرف بالماليك القيصرية في الشام رفضت الخضوع لحكم امرأة (٢) ، فثار أفرادها ضد هذه الملكة المملوكة التي وقف إلى جانبها الماليك الصالحية .

وتلافيا لما قد يحدث للماليك في مصر والشام على أيدي أنفسهم رأيت هذه الملكة الذكية أنه من الأفضل والأجدي أن تنحني للعاصفة حتى تمر ، فتزوجت بأحد قادة الماليك الصالحية ، وهو عز الدين آيبك ، بعد أن تنازلت له عن عرش مصر (٣) ، وان استمرت تدير دفة السلطة من وراء ستار .

فكانت هذه الدولة التي بدأ عهدا مع أول ملكة امرأة أولا ، وامرأة مملوكة ثانيا ، ظاهرة فريدة في التاريخ الاسلامي ، ذلك ان حكم النساء لم يكن مألوفاً للناس أولا (٤) ، وان هذا الحكم كان على خلاف مقتضى الشرع ثانيا .

(١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٦٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٦٨ .

(٤) مع ملاحظة ظهور الملكة رضية الدين في دلهي ، إلا أن هذه الظاهرة لم تكن كافية لايجاد الرضى والقبول لدى الناس لتولي المرأة سدة الحكم .

٦- سلطة الملك الصالح نجم الدين أيوب

مولده :

ولد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب بقلعة الجبل في مصر سنة ٦٠٣ هـ (١).

توليئه السلطة :

لما بلغ عمر الصالح ثلاثة وعشرين عاماً أي في سنة ٦٢٥ هـ ، كانت بداية توليه السلطة لأول مرة في حياته ، حيث أنابه أبوه الملك الكامل عنه حاكماً لعصر ، عندما قدم إلى دمشق ، ولكن الكامل لما رجع إلى مصر قادماً من دمشق لم تعجبه أحوال ابنه الصالح ، فكان هذا سبباً في تحوله عنه إلى ابنه الملك العادل ، حيث أنه لما استولى الملك الكامل على حرّان وحصن كيفا وسنجار ، جعل ابنه الصالح سلطاناً عليها ، وولّى أخوه الملك العادل مكانه على مصر ، فتأثر الملك الصالح كثيراً ، ولما قويت نفسه كاتب الامراء واستخدم الخوارزمية (المماليك) في سبيل استعادة عرش مصر ، وكان على دمشق الملك الجواد ، الذي خشي على نفسه من العادل فكاتب الصالح ، وأتفق معه على أن يتنازل له الجواد عن دمشق ، وتم لهما ذلك في سنة ٦٣٦ هـ (٢) ، وعلى ما يبدو أن الملك الصالح وافق على هذه المقايضة حتى يكون قريباً من مصر ، كي يتمكن من الوصول إليها ، والسيطرة على عرشها .

ويؤكد لنا هذا ، تحرك الصالح إلى مدينة نابلس ، ومراسلة المصريين من هناك لاستمالتهم إليه . ولكن حدث ما لم يكن في اعتبارات الملك الصالح عندما قام عمه الصالح اسماعيل أمير بعلبك بالسير إلى دمشق ، والسيطرة عليها ، فعاد الملك الصالح

(١) الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيك) ، كتاب الوافي بالوفيات ، ج ٩ ، ص ٥٥ ، ابن اياس (محمد بن أحمد) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٢) الصفدي ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٥٦ ، ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن) ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٠٥ ، سبط ابن الجوزي ، شمس الدين أبي المعظم يوسف بن قزأوغلي التركي (ت ٦٥٤ هـ ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٧١٨ ، الذهبي (ابو عبد الله عمر بن أحمد بن عثمان بن قايماز) (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) ، تاريخ الاسلام ، ميكروفيلم في مركز التوثيق ، الجامعة الاردنية ، ص ٢١٦ .

من نابلس لاستردادها من عمه ، ولكنه فشل بعد أن خذله عسكره وجنوده ، وفي الوقت الذي كان فيه الناصر داود - أمير الكرك - قد توجه الى مصر داخلا في طاعة الملك المعادل ، فأكرمه المعادل ، ولما عاد من مصر لم يلتفت الناصر الى وجود الملك الصالح في نابلس ، بل توجه مع أسد الدين شيركوه صاحب حمص الى دمشق ، ودخلوها فسي السابع عشر من صفر سنة ٦٣٧ هـ ، وكل ذلك حدث والملك الصالح مقيم في نابلس ، ثم حدث أن اتفق الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص على أن يقتسما البلاد مناصفة ، وزحفا نحو القلعة من ناحية باب الفرج ودخلوها بعد نهبها ، وهتكوا حرمتها ، وأعتقل الملك الصالح اسماعيل الملك المغيث عمر بن الملك الصالح أيوب ، واستولى على جميع ما في القلعة ، وبلغ الملك الصالح ما جرى ، وأشهر على الملك الصالح أن يعود من نابلس الى دمشق ، وفي الطريق خذله جماعته من بني أيوب عندما علموا بسقوط القلعة ، وبقي الصالح ومعه غلمان ومال يجهز شجر الدر عندها أثر الرجوع الى نابلس . وفي الطريق طمعه أهل الغور والقبائل ، ولكنه تمكن من كسرهم وهزيمتهم ، ومن ثم الوصول الى نابلس والاقامة فيها (١) .

اعتقاله وسجنه :

ولما رجع الناصر داود الى الكرك بعث عماد الدين بن موسى ، والظاهر بن سنقر الحلبي على رأس ثلاثمائة فارس الى نابلس ، ولما التقوا بالملك الصالح نجم الدين سلموا عليه بالسلطنة وقالوا له : طيب قلبك ، الى بيتك جئت ، فقال الصالح : لا ينظر ابن عمي فيما فعلت - أي احتلال نابلس ، وهي جزء من بلاد الناصر داود - فبلا زال الملوك على هذا ، وقد جئت اليه أستجيره ، فقالوا : قد أحارك وما عليك بأس ، وأقاموا عنده أياما حول الدار ، وفي ليلة من الليالي ، ضربوا بوق النفير ، وأشاعوا أن الفرنج قد جاءت ، فركب الناس ومال يجهز الصالح ، حتى وصلوا الى سبسطية ، وكانت هذه خدعة منهم ، وفي سبيل تفريق عسكره ومال يجهز عنه ، حيث دخل عليه عماد الدين والظاهر مع المساكر الى الدار ، وجردوه من سيفه ، وحملوه معهم الى الكرك ، وكانت شجر الدر ، حاملا ، فلما رأت هذا الموقف أجهضت وسقط حملها (٢) .

(١) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٠٧ ، سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ق ٢ ، ج ٨ ، ص ٧١٩ - ٧٢٦ ، الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢١٢ - ٢١٨ .

(٢) الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

وفي مرآة الزمان والنجوم الزاهرة ، رواية على لسان الطك الصالح نفسه : بالنظر
لا هيئتها نورد ها في البحث والتفصيل ، وتقول الرواية : قال ابو المظفر : ولما اجتمعت
به (يعني الصالح) في سنة تسع وثلاثين وستمائة بالقاهرة حكى لي صورة الحال قال :
أركبوني بغلة بغير مهماز ولا مقرعة ، وساروا الى المؤتة* في ثلاثة أيام ، والله ما كلمت
أحدا منهم كلمة ، ولا أكلت لهم طعاما حتى جاني خطيب الموت ومعه بردة عليها دجاجة ،
فأكلت منها ، وأقاموا بي في المؤتة يومين وما أعلم ايش كان المقصود ، فاذنا بهم يريدون
(أن) يأخذوا طالعا نحسا يقتضي ألا أخرج من حبس الكرك ، ثم أدخلوني الى الكرك
ليلا على الطالع الذي كان سبب سعادتي ونحوسهم .

قلت : وأنا ممن ينكر على أرباب التقاويم أفعالهم ، وأقوالهم لاني من عمري
أصحب أعيانهم ، فلم أر لما يقولونه صحة ، بل الكذب الصريح المحض ، ويعجبني قول
الامام الرياني عبد المؤمن بن هبة الله الحرجاني في كتابه " أطباق الذهب " الذي يشتمل
على اثنين ومائة مقالة وما أعجبنى من ذلك المقالة الثالثة والعشرون ، وهي ما نحن فيه
من علم الفلك والنجوم ، قال : " أهل التسبيح والتقديس لا يؤمنون بالتربيع والتسديس ،
والانسان بعد علو النفس ، يجل عن ملاحظة السعد والنحس ، وأن في الدين القويم ،
استغناء عن الزيج والتقويم ، والايمان بالكهانة ، باب من أبواب المهانة ، فأعرض عن
الفلاسفة ، وغض بصرك عن تلك الوجوه الكاسفة ، فاكثروا عدة الطبع وحرسوا الكواكب السبع ،
ما للنجم الفبي ، والعلم الفبيبي . وسر حجب عن النبي ، وهل ينخدع بالغال ، والآ قلوب
الاطفال ، وأن أمرا جهل حال قومه ، وما الذي يجري عليه في يومه ، كيف يعرف علم
الغد ومعه ، ونحس الفلك وسعده ، وان قوما يأكلون من قرصة الشمس لمزولون ، وأنهم عن
السمع لممزولون ، ما السموات الا مجاهل خالية ، والكواكب صواها ، والنجوم الا هياكل
عالية ، ومن الله قواها ، سبعة سيرة نيرة ، خمسة منها متميزة شرارة وخيرة طباعها
متغايرة ، كل يسرى لأمر معسى ، وكل يجري لأجل مستى " .

قال : ووكلوا بي ملوكا لهم ، (فظا غليظا) يقال له : زريق وكان أضر علي
من كل ما جرى ، فأقمت عندهم الى شهر رمضان سبعة أشهر ولقد كان عندي خادم صغير ،
فاتفق ان أكل ليلة كثيرا فاتخم ، وبال على البساط ، فأخذت البساط بيدي والخادم ، وقت
من الايوان الى قرب الدهليز ، وفي الدهليز ثمانون رجلا يحفظونني وقلت : يا مقدمون ،

* المؤتة : قرية من قرى البلقاء في حدود الشام وهي على مرحلة من الكرك ،
وتعرف اليوم بأسم (مؤتة) .

هذا الخادم قد أتلف هذا البساط فانه هبوا به الى الوادي واغسلوه فنظر في زريق ، وقال : ايش جاء بك الى هنا : وصاحوا عليّ بعدت الى موضعي * (١) انتهت الرواية .

وترجع أهمية هذه الرواية لكونها وردت على لسان الملك الصالح نفسه ، ولأنها تضمنت صورة عن الفترة التي عاشها بعد اعتقاله وسجنه في قلعة الكرك ، حيث تشير الرواية الى أنه كانت قد لحقت به المهانة وعدم الاحترام .

ولقد أفرج اعتقال الملك وسجنه أخاه الملك العادل في مصر ، فدقت الكوسات وزينت شوارع القاهرة ، وقام الملك العادل بإرسال المذكور العلاء بن النابلسي الى الملك الناصر داود صاحب الكرك يطلب منه أن يسلمه الملك الصالح نجم الدين مقابل مائة ألف دينار ، ولكن الناصر لم يحبه الى طلبه ، ولما سمع الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك وأسد الدين شيركوه صاحب حمص بالإمر ، راسلوا الملك الناصر ، وأغروه بتسليم الصالح الى أخيه العادل ، ولكن الناصر لم يتلفت لكلامهم ، وظل الصالح في سجنه ، حتى أشار عماد الدين ، وابن قليج والظهير على الملك الناصر بالاتفاق مع الملك الصالح نجم الدين بإخراجه ، فأخرجه الناصر ، وتحالفا واتفقا على أن يأخذ الناصر دمشق ، وحمص ، وحماء ، وحلب ، والجزيرة ، والموصل ، وديار بكر ، ونصف ديار مصر ، ونصف ما في الخزائن من المال ، والجواهر ، والخيول ، والشباب وغيرها ، فخلف الصالح على ذلك وهو تحت القهر والسيوف (٢) .

ومن خلال ما تقدم من أحداث ، يمكننا أن نوضح موقف الملك الناصر داود قتي عدم موافقته على طلب الملك العادل من أن يسلمه أخاه الملك الصالح ، ولا الرد على رسائل الملك الصالح اسماعيل وأسد الدين شيركوه ، بالرغم من عرض الملك العادل عليه مبلغ مائة ألف دينار ، فالملك الصالح لما توجه الى مصر مستحيراً بالملك العادل على

(١) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٠٨ - ٣١٠ ، سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٢٧ .

(٢) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣١٠ ، الصفي (صلاح الدين خليل بن آيبك) ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٥٦ ، اليونيني (قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد) ، ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

الملك الصالح لما احتل الثاني نابلس وأجزاء من بلاد ، ولم يحبه العادل الى طلبه ، وعاد من هناك خائبا ، فكان موقف الناصر من العادل موقف الرد بالمقابل ، وأما بالنسبة للملك الصالح اسماعيل ، وأسد الدين شيركوه ، فقد ورد في البحث آنفا أن الناصر داود لما عاد من مصر توجه على رأس عساكره الى دمشق ، وتجاهل وجـود الملك الصالح نجم الدين في نابلس ، ولكن الذي حصل مع توالي الاحداث كما تبين ، هو أن أتفق الصالح اسماعيل وأسد الدين شيركوه على مهاجمة دمشق واقتسام البلاد فيما بينهم ، وهذا ما حصل بالفعل ، فعلى ما يبدو أن هذا الموقف من كليهما وتجاهلها للملك الناصر داود ، جعله يتجاهل رسائلهما وطلبهما له بتسليم الصالح لـ أخيه الملك العادل .

ولقد ساعد الناصر داود على موقفه هذا تغير المصريين على الملك العادل آنذاك ، بعد أن أساء السيرة في أمرائه وحواشيه ، واستغل الملك الناصر هذا الموقف ، فكتب زعماءهم ، وتوثق من موقفهم في مساعدته ، ومناصرته على الملك العادل (١) .

ولما علم الملك العادل بخلاص أخيه الملك الصالح نجم الدين من أسره ، والاتفاق الذي تم بينه وبين الملك الناصر داود ، قام بالاتفاق مع عمه الملك الصالح اسماعيل على مهاجمة الناصر داود ، والملك الصالح في الكرك ، وبالفعل فقد خرج العادل من مصر وسار حتى وصل الى بلبس ، وهناك وقع خلاف بينه وبين امرائه مما دعاهم الى القبض عليه ، وأرسلوا الى الملك الصالح نجم الدين أيوب يستعجلونه في القدوم الى مصر ، ويعرفونه بما حصل من القبض على العادل ، فسار الصالح ، ومعه الملك الناصر داود ، وجماعة من الـامراء والعساكر ، ووصلوا الى بلبس في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٣٦ هـ ، فنزل الصالح في خيمة العادل ، والعادل معتقل في حـزكاة (٢) .

(١) الصفي (صلاح الدين خليل بن آيبك) ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٥٦ ،

سيط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨ ، ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣١١ ، ابن واصل (جمال الدين

ابوعبد الله محمد بن سليم الشافعي) ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ،

ميكروفيلم ، مركز التوثيق والوثائق ، الجامعة الاردنية ، المقرزي (تقي الدين

احمد بن علي) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق مصطفى زيادة ، ج ١ ،

ص ٢٩٦ ، الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

عودة الملك الصالح الى مصر :

وفي الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٣٦ هـ ، تمكن الملك الصالح نجم الدين أيوب من الاستيلاء على ملك مصر ، والقبض على أخيه الملك العادل وسجنه في القلعة عدة سنين ، حتى كانت سنة ٦٤٦ هـ ، عندما رأى الملك الصالح الافراج عن أخيه العادل ، ونفيه الى الشوك ، وبعث اليه بواحد من خدمه يخبره بالامر ولكن العادل رد عليه بقوله : " ان أردتم أن تقتلوني في الشوك ، فها هنا أولى ولا أروح الى الشوك أبداً ، " فخرج الخادم وعرف الملك الصالح بقول أخيه العادل ، فقال له الملك الصالح : دبّر أمره ، فأخذ الخادم ثلاث مائيك ودخلوا عليه ليلة الاثنين ثاني عشر من شوال سنة ٦٣٦ هـ ، فخنقوه بشاش وعلقوه به ، وأظهروا أنه شقق نفسه ، وأخرجوا جنازته كالغريب ، ولم يجعروا أحد على البكاء عليه والترحم له . ودفن في تربة شمس الدولة خارج باب النصر (١) .

وكما يظهر من الرواية السابقة عند ابن تغرى بردى ، فإن الملك الصالح قد تسلم مقاليد الامور في مصر دون أن يدخل في عراك مع أخيه العادل ، ولكن ابن أياس في كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور يذكر عكس هذا تماماً ، حيث يقول في سلطنة الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر نجم الدين أيوب : " وهو السادس من ملوك بني أيوب لمصر ، بويغ بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الكامل محمد . وكان سبب سلطنته ، أنه لما توفي أبوه الملك الكامل بدمشق ، كان العادل نائبا عن أبيه لمصر ، فلما جاءت الأخبار بموت الكامل في دمشق ، اتفق رأى الامراء الذين كانوا يحصر على سلطنة العادل أبي بكر عوضا عن أبيه ، فسلطوه ولقبوه بالملك العادل على اسم جده . فلما بلغ الخبر أخاه الامير نجم الدين وكان يحلب وكان أكبر من أخيه العادل شق ذلك عليه ، وحضر الى مصر على جرائد الخيل فلما دخل القاهرة ، تعصب للعادل جماعة من الامراء وحاربوا الامير نجم الدين وجرى بينهما من الحروب ما يطول شرحه ، ثم قويت شوكة الامير نجم الدين على أخيه العادل ، فخلعه من السلطنة ، وسجنه بقلعة الجبل الى ان مات فكانت مدة سلطنته بمصر سنة وشهرين وأياما ، ولما خلع من السلطنة ، تولى من بعده أخوه نجم الدين " (٢) .

(١) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣١٢ ، سبط ابن الجوزى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٧٢ .

(٢) ابن أياس ، ابو البركات ، محمد بن احمد (ت ٩٣٠ هـ - ١٥٢٤ م) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

الصالح المرتضى أيوب أكثر من
لا أخذ الله أيوباً بفعلته

ترك بدولته يا شر مجلوب
فالناس قد أصبحوا في ضرأيوب

ولما شعر الملك الصالح بمضايقة الناس، وكرههم للمالِك، قام بيناء قلعة بالروضة وأسكنهم فيها وسماهم بالممالك البحرية، وكان عدد هم ألف مملوك يعيشون فيها ولا يخالطون الناس بالمدينة بعد أن آمن لهم الصالح الأمن والغذاء ولا موال. وجعل الملك الصالح حول القلعة عددا من المراكب البحرية مجهزة بالسلاح، لا تبصر ذلك المكان، يخرج إليها الممالك فيركبوها في حال سماع أية أخبار عن قدوم الفرنج إلى المنطقة (٢).

وما حدث في سنة ٦٤٠ هـ في عهد الملك الصالح نجم الدين وفاة الخليفة العباسي المستنصر ببغداد ، ومبايعة ابنه المستعصم ، وكانت بغداد في هذه السنة قد عمّ فيها الوباء وتزايدت فيها الامراض (٣) .

(١) ابن اياس، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٩، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣١٩، ابو الفداء (اسماعيل بن علي عماد الدين)، المختصر في اخبار البشر، ج ٣، ص ١٨٨، المقريزى، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٩.

(٢) ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٤٥.

(٣) ابن تفری بردی، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٤٦ - ٣٥١.

وفي الفترة الواقعة بعد عام ٦٤١ هـ بدأت العلاقة بين الملك الصالح في مصر وملك الشام ، وفي سنة ٦٤٢ هـ ترددت الرسل بينه وبين عمه الصالح اسماعيل في الصلح ، وكان الملك المغيث بن الملك الصالح اسيرا عند الصالح اسماعيل ، فأطلقه الصالح اسماعيل ، وخطب للصالح ببلاد معلنا الولاء له ، ولكن الامراء وتغير ، فعاود القبض على الملك المغيث وسجنه حتى توفي في الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٢ هـ بعد أن عجز والده عن خلاصه - ودفن في تربة جده الكامل في دمشق (١) .

وفي سنة ٦٤٣ هـ حاصر المصريون والخورزمية - ماليك الملك الصالح - دمشق (٢) ، وفي سنة ٦٤٤ هـ توفي الملك المنصور صاحب حمص واسمه ابراهيم ابن شركوه محمد بن أسد الدين شيركوه ، وحمل في تابوت الى حمص ، وقام بعده عليها ابنه الاشرف موسى لمدة سنتين وشهورا حتى أخذت منه ، وتسلم السلطان الصالح نجم الدين في هذه السنة قلعة الصبية* ، من الملك الناصر داود صاحب الكرك . وفي سنة ٦٤٥ هـ فتح الوزير فخر الدين ابن الشيخ بمسكن الملك الصالح نجم الدين طبرية ، وحاصر عسقلان ، وقاتل عليها حتى فتحها . وفي سنة ٦٤٦ هـ توجه الملك الصالح من مصر الى الشام ، بعد ما قاىض الملك الاشرف موسى - صاحب حمص - تل باقر بحمص مع الملك الناصر يوسف بن العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين - صاحب حلب - ولكنه رجع الى مصر بعد أن علم بهجوم الفرنج على دماط ، وفي طريق عودته زار القدس الشريف ، كما زار الخليل ، ثم عاد الى مصر (٣) .

وما لا شك فيه أن زيارة الملك الصالح لبلاد الشام وعودته الى مصر دليل على أن سلطان الملك الصالح قد امتد الى هذه البلاد فأصبحت سلطنته تشمل مصر وبلاد الشام - بمعظمها - .

ولعل من أبرز أحداث سنة ٦٤٠ هـ هجوم الفرنج على دماط بقيادة ملكهم لويس التاسع ، فنهب المدينة ، وقتل من المسلمين عددا كبيرا . ولما جاءت الاخبار الى -

(١) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٣٥٢ .

(*) اسم لقلعة بانياس .

(٢) ابن تفرى بردي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

الملك الصالح أمر بأشهار النداء في مصر والقاهرة بالنفير الغام ، فلا يتأخر كبير ولا صغير ، فبؤاد الفرنج قد وصلت إلى المنصورة ، واجتمع حول الملك الصالح حوالي عشرين ألف مقاتل ، فخرج بهم وكان عليلاً ، ولما وصل إلى المنصورة أمر بشنق نائب دمياط ، بسبب أنه أخلس المدينة وهرب منها وترك أبوابها مفتوحة أمام الفرنج ولم يقاومهم أبداً ، كما شنق معه حوالي خمسين أميراً كانوا في دمياط وانسحبوا منها بفير اذن من السلطان .

وبعد ذلك اشتبك الفريقان ، وقتل منهم عدد كبير ، والملك الصالح آنذاك يتزايد في العرض ، وامتنع عن الاجتماع بالأمراء ، حتى كانت سنة ٦٤٧ هـ ، ففي هذا العام توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بالمنصورة ، وكسب خبر موته خوفاً من أن يطمع الفرنج بالديار المصرية . وحمل الصالح في زورق تحت الليل ، ووجي به إلى قلعة الروضة ، فدفن في تلك القلعة - التي سبق ذكرها في وصف الروضة - ثم نقل جثمانه بعد مدة إلى القبة بجوار المدرسة الصلاحية ، فدفن بها ، وكانت مدة سلطنة الملك الصالح تسع سنين وسبعة أشهر وأحد عشر يوماً (١) .

ولقد كان اخفاً موت الملك الصالح عن الجند والمساكر والعمامة من الناس موقفاً عظيماً لا زال التاريخ يسجله لزوجته شجر الدر التي كانت ترافقه في المنصورة . وفي سنة (٦٤٧ هـ) توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد مرض ألم به (٢) بعد ما كان ملك مصر والقسم الأعظم من الشام ، ويوصف الملك الصالح بأنه " كان مهيباً عالي الهمة شديد الوقار والصمت " (٣) .

ويرد في النجوم الزاهرة رواية لابن واصل في سيرة الملك الصالح نجم الدين حيث يقول : " وكان مهيباً عزيز النفس عفيفاً طاهر اللسان والذليل ، لا يرى الهزل ، ولا العبث ، شديد الوقار كثير الصمت ، واشترى من الماليك الترك ما لم يشتره أحد من أهل بيته حتى صاروا معظم عسكره ورجحهم على الأكراد وآمرهم ، واشترى وهو بمصر خلقاً منهم ، وجعلهم بطانته والمحيطين بدلهيزه وسماهم " البحرية " ، وحكى لي حسام الدين بن أبي علي : " أن هؤلاء الماليك مع فرط جبروتهم وسطوتهم كانوا أبلغ من يعظم هيئته ،

(١) ابن أبياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩ ، المقريزي ، المصدر

السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٩ ، الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

(٢) ابن أبياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٧٥ .

كان اذا خرج وشاهدوا صورته يرددون خوفا منه ، وأنه لم يقع منه في حالة غضبه كلمة قبيحة قط . أكثر ما يقول اذا شتم يا متخلف ، وكان كثير الباء بجواريه فقط . ولم يكن عنده في آخر وقت غير زوجتين : احدهما شجر الدر ، والاخرى بنت العالمة تزوجها بعد ملوكه الجوكندار - كما ذكر - وكان اذا سمع الفناء لا يتزعزع ولا يتحرك ، وكذلك الحاضرون يلتزمون حالة كأنما على رؤوسهم الطير ، وكان لا يستقبل أحدا من أرباب دولته بأمر بل يراجعون القصص مع الخدام ، فيوقع عليها بما يعتمد عليه كتابة الاشياء ، وكان يحب أهل الفضل والدين .

وما كان له ميل لمطالعة الكتب ، وكان كثير العزلة والانفراد ، وله فهمه باللعب بالصوالجة ، وفي انشاء الابنية العظيمة الفاخرة (١) .

وتشير الرواية السابقة لابن واصل الى الصفات والخلال الجيدة التي كان يتمتع بها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بينما نجد رواية أخرى تعرض الى غير هذه من الصفات ، وردت في كتاب مرآة الزمان ، حيث يذكر " . . . وكان مهيبا ، هيبية عظيمة ، جبارا أباد الاشرفية وغيرهم . وقال جماعة من آرائه : والله ما نعلم على بابيه الا ونقول من ها هنا نحمل الى الحبوس ، وكان اذا حبس انسانا نسيه ، ولا يتجاسر أحد أن يخاطبه فيه ، وكان يحلف انه ما قتل نفسا بغير حق . قال صاحب المرأة : وهذه مكابرة ظاهرة ، فان خواص اصحابه حكوا أنه لا يمكن احصاء من قتل من الاشرفية وغيرهم ولو لم يكن الا قتل أخيه العادل لكفى " (٢) .

وبالاضافة الى هذه الرواية فان هنالك رواية أخرى ، يذكرها ابن تغري بردي في كتابه ، تشير الى كثير من الخصال الرديئة - على ما ورد في الرواية - للملك الصالح حيث يذكر : " وكان الملك الصالح كثير التخيّل والغضب والمؤاخذة على الذنب الصغير والمعاقبة على الوهم ، لا يقبل عشرة ولا يقبل معذرة ولا يرعى سالف خدمة ، والسيئة عنده لا تغفر ، والتوسل اليه لا يقبل ، والشفائع لديه لا تؤثر ، فلا يزداد بهذه الامور التي تسبب سخائم الصدور الا انتقاما . وكان ملكا جبارا متكبرا شديد السطوة كثير التجرد ،

(١) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٣١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٣٣٣ ، سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ق ٢ ،

ج ٨ ، ص ٧٧٥ .

والتعاطف على أصحابه ، وندائه ، وخواصه ، ثقل الوطأة ، لا حرم أن الله مصر مدة ملكه وابتلاه بأمراض عدم فيها صبره ، وقتل ممالكه ولده توران شاه من بعده ، ولكنه كان عنده سياسة حسنة ومهابة عظيمة وسعة صدر في اعطاء المساكر والائناق في مهمات الدولة ، لا يتوقف فيما يخرججه في هذا الوجه ، وكانت همته عالية جدا ، وآماله بعيدة ، ونفسه تحدشه بالاستيلاء على الدنيا بأسرها والتغلب عليها وانتزاعها من يد ملوكها ، حتى لقد حدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد ، والعراق ، وكان لا يمكن القوى من الضعيف ، وينصف المشروف من الشريف ، وهو أول من استكثر من الممالك من ملوك البيت الايوبي ، ثم اقتدوا به لما آل الملك اليهم (١) .

وبدراسة هذه الرواية يظهر لنا أن صاحبها قد وقع في خلاف مع نفسه ، حيث يبدأ روايته بتعداد الكثير من الخصال السيئة والرديئة التي يعاب عليها أدنى الناس وأمثلهم فكيف اذا كانت في سلطان أو ملك ، ولكنه في جزء آخر من روايته لا يستطيع إلا أن يذكر ما كان عليه الملك الصالح من خصال حميدة ، ويبدو أن هذا الخلاف في الرواية أما أن يكون راجعا الى تداخل روايتين مع بعضهما البعض ، وهذا هو الاحتمال الأكبر ، أو يكون الامر راجعا الى أن كراهية صاحب الرواية جعله يصف الصالح بما وصفه من صفات خسيصة ، حيث يذكر في جزء من الرواية ، - وقتل ممالكه ولده توران شاه - . ويمد هذا الجزء منها يبدأ بذكر الصفات الحميدة فيه .

وكانت ولاية الملك الصالح نجم الدين أيوب تسع سنين وسبعة أشهر وعشرين يوما فقد ولي السلطنة في عشرين ذى الحجة سنة سبع وثلاثين ، ومات في نصف شعبان سنة سبع وأربعين وستمئة .

ويعلق ابن تغرى بردى على ما أورد في كتابه من روايات بحق الملك الصالح نجم الدين أيوب بقوله : " انتهى ما أوردناه في ترجمة الملك الصالح من أقوال جماعة كثيرة من المؤرخين ممن عاصره وبعد هم ، فمنهم من شكر ، ومنهم من أنكر ، وهذا شأن الناس في أفعال ملوكهم ، والحاكم أحد الخصمين غضبان منه اذا حكم بالحق ، فكيف السلطان ، وفي الجملة هو عند أعظم ملوك بني أيوب ، وأجلهم وأحسنهم رأيا ، وتدبرا ومهابة ، وشجاعة ، وسؤدا بعد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهو أخو جده الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، ولم لم يكن من محاسنه ، إلا تجلده على مقابلة العدو والمنصورة ، وهو بتلك الامراض المزمنة المذكورة ، وموته على الجهاد والذود عن المسلمين ، - والله يرحمه - ما كان أصبره وأغزر مروءته " (٢) .

(١) ابن تغرى بردى ، نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

٧ - دور شجر الدر في إدارة الدولة بعد وفاة الملك الصالح :

لقد ورثت شجر الدر الدولة في ظروف صعبة للغاية ، فقد توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب في الوقت الذي كان الفرنج يهددون فيه شغرا من شغور البلاد بقيادة لويس التاسع ، وفي الوقت الذي كان قد شنق فيه خمسين من الأمراء الذين انسحبوا من دماط بغير إذن من السلطان الصالح ومعهم نائب دماط .

ومن خلال الروايات التي ذكرت في هذا الفصل حول شخصية الملك الصالح نجم الدين أيوب يتضح عظم مسئولية شجر الدر والمآزق الذي وقعت فيه ، ولعل في هذا عذرا لسرد صفات الصالح تحت عنوان وفاته ، فالقصد الذي رمت إليه هو بيان الحالة التي كانت عليها شجر الدر بعد وفاة زوجها بما تحلته شخصيته من هيبة ، وسلطة ، وجاه ، وعظمة ، وخاصة بالنسبة لمماليكه ، وهم عماد السلطة آنذاك . ويمكن القول بأن الموقف آنذاك كان عبثا يثقل كواهل الرجال فكيف بأمرأة - ملوكة - ولا تملك السلطة الشرعية التي تمكنها من إدارة الأمور بقوة وحزم .

ولولا أن شخصية شجر الدر كانت متميزة بقوتها ، ودعائها لما أفلحت في أداء الدور الذي اناطته بنفسها منذ كان الصالح مريضا ، حيث استمرت معه ، وإلى جانبه تعيينه على مرضه ، وعلى تدبير أمور الحكم ، فأثبتت بذلك أنها امرأة ، ذات عقد وحزم ، ولما توفي الملك الصالح أخفت خبر موته ، واستمرت التقاليد السلطانية كما كانت ، تؤكد على عدم الوفاة ، فالسماط يعد كل يوم ، وهي تؤكد للأمراء الجيش أن السلطان مريض (١) . خشية أن يهتز المسلمون في مواجهتهم مع الفرنج ، ولقد نجحت شجر الدر في ذلك ، وجعلت هذه الحادثة منها رمزا لا يزال يذكره التاريخ .

(١) الصفي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١٦ ، ص ١٢٠ ، ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٩ ، الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢٢ .

٨ - شجر الدر وعلاقتها بتوران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب :

لم تكن العلاقة بين شجر الدر وتوران شاه ابن الملك الصالح واضحة المعالم قبل وفاة زوجها ، حيث لم تشر الروايات الى وجود أية علاقة تربط بين الاثنين في حياة الملك الصالح ، وعلى ما يبدو أن شخصية الملك الصالح وقوته ، كانت تقف حائلا أمام ظهور أية علاقة بين ولده وبين محظيته شجر الدر ، خاصة وأن توران شاه ابن امرأة أخرى لم تشر الروايات الى أن الملك الصالح كان معها على علاقات ودية ، بل ان معظم الروايات تتحدث عن زوجته شجر الدر وأنها هي التي كانت ترافقه في رحلاته وتنقله وسجنه حتى عاد الى عرش مصر .

ولذلك يمكن القول بأن العلاقة بين شجر الدر وبين توران شاه بدأت بوفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حيث أنها كانت تدير الامور أثناء مرضه ، ولما مات اتفق الأمراء على تحليف الناس لوالده الملك المعظم توران شاه ، ولولي عهده فخر الدين فتقرر ذلك وطلب الناس ، فحلفوا الاولاد ، ثم حلف الرجال ، وقام فخر الدين بارسال نسيخ الايمان الى أنحاء البلاد ليحلفوا للمعظم توران شاه ، الذي كان أثناء ذلك بحصن كيفا ، فأرسلوا الفارس أقطاي ، يطلبه للحضور الى مصر وتسلم عرش السلطنة ، فترك توران شاه ابنه الملك الموحد عبد الله وهو ابن عشر سنين في حصن كيفا ، ثم سار حتى وصل الى دمشق عبر الصحراء خشية الطوك الذين في طريقه ، ولما وصل الى دمشق دخل قلعتها ، وخلع على الدماشقة واعطاهم الاموال ، وأحسن اليهم ، وما سئل شيئا فقال لا (٣) فأحبه الناس كثيرا ، ثم سار الى مصر بعد عيد الأضحى ، بعد ان أقام في دمشق سبعة وعشرين يوما ، ووصل الى مصر في آخر سنة ٦٤٧ هـ (٤) .

معركة المنصورة ودور توران شاه فيها :

وقعت هذه المعركة الفاصلة في أول ليلة من سنة ٦٤٨ هـ بعد وصول توران شاه الى المنصورة ، وعلى ما يبدو أن المسلمين قد استبشروا به خيرا ، فكان النصر حليفهم وقتل

- (١) الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .
- (٢) الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .
- (٣) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٧٧٤ ، الكتبي (محمد بن شاكر) ، فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .
- (٤) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٧٧٥ .

من الفرنج مائة ألف ، ويذكر سبط ابن الجوزي أن كتاب المعظم توران شاه قد وصل ببشر
بالنصر ولم يحدد الجمعة التي وصل اليها ، وطلّى ما يبدو أن المقصود هو القاهرة مقر
الدولة ويقول توران شاه في كتابه : " الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وما النصر الآمن
عند الله ، وبومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم " وأما
بنعمة ربك فحدث " وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " بنشر المجلس السامي الجمالي ،
بل بنشر الاسلام كافة بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين فانه قد
كان استفحل أمره ، واستحكم شره ، وآيس العباد من الأهل والاولاد ، فنودوا (ولا تياسوا
من روح الله انه لا يياس من روح الله الآ القوم الكافرون) (١) .

ولما كان يوم الاربعاء مستهل السنة المباركة تم الله على الاسلام بركتها ،
فتحنا الخزائن وبذلنا الاموال ، وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان ، والمطاوعة ، واجتمع
خلق عظيم لا يحصيهم الا الله تعالى وجاؤا من كل فج عيق ، ومن كل مكان بعيد
سحيق ، ولما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك
الكامل فأبيناه ، ولما كان في الليل تركوا خيامهم ، وأثقالهم ، وأموالهم ، وقصدوا دسباط
هارسين في آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل في أديارهم عامة الليل ، وقد حل
بهم الخزي والويل فلما أصبحنا نهار الاربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه
في اللج ، وأما الاسرى فحدث عن الخبر ولا حرج والتجأ الا فرنسيين الى المنية وطالب
الأمان فأمناه وأخذناه وأكرناه ، وتسلمنا بعمون الله وقوته وجلاله وعظمته ، وذكر كلاما
طويلا * (٢) . انتهت رسالة توران شاه .

ولقد أوردت هذه الرسالة لما فيها من تفاصيل كاملة عن سير معركة المنصورة ،
وما أحاط بها من أمور ، حتى كانت نهايتها واستسلام الطك الا فرنسيين ونهاية وجود
الفرنج في المنطقة ، ولا بد من الاشارة الى أن هذه الرسالة لم أعثر لها على أثر
الا عند سبط ابن الجوزي ، فلم ترد في المصادر السابقة ولا في المراجع اللاحقة .

(١) سورة يوسف ، الاية ٨٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٧٧٨ - ٧٧٩ .

لقد كان لمعركة المنصورة أثر كبير في نفوس المسلمين تحاء الملك المعظم
توران شاه ، فازدادوا محبة له وتعلقا به ، وفي هذا المقام يقول سبط ابن الجوزي : قد
ذكرنا مجيئه الى الشام وذهابه الى مصر - واتفق كسرة الفرنج عند قدومه ، وتيسر الناس
بطاعته واستبشروا بمشاهدته (١) .

ولئن عظم الناس توران شاه وأحبوه ، إلا أن ذلك لم يطل ، فسرعان ما انقلب
الناس عليه بعد أن بدت منه أمور جعلتهم ينفرون منه وكانت سببا في مقتله ونهاية
حكمه .

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٧٨٠ .

٩- نهاية حكم توران شاه :

لم تكن العلاقة التي ربطت بين توران شاه والماليك علاقة طيبة منذ بدايتها ، على الرغم من أن بعض أمراءهم - على ما ظهر سالفا - كانوا الداعين الى تولية توران شاه السلطة بعد وفاة والده الملك الصالح نجم الدين ، ومنهم الذين ارسلوا له الفارس أقطاي الى حصن كيفا يستعجله ويستحثه على الحضور .

وبدا سوء العلاقة واضحا بين توران شاه وأمراء الماليك بنقته على الامير فخر الدين حيث يذكر سبط ابن الجوزي أن بعض الماليك الذين ارسلهم الامير فخر الدين الى دمشق يستحثون الملك توران شاه على الحضور ، وأهملوه بأن الامير فخر الدين سوف يقتله ، حال حضوره الى مصر ، لينفرد في حكمهم وقد حلف العسكر على ذلك ، فقام توران شاه بتحليف هؤلاء الماليك الذين بعثهم فخر الدين على قتل فخر الدين نفسه (١) ولكن الامير فخر الدين مات في معركة دمياط ، بعد أن كان قد ركب مع بعض ماليكه ، يستطلع خبر نزول الفرنج في معسكر المسلمين ، فلقيه بعض فرسانهم فانقضوا عليه ، وقتلوه ، بعد أن فر عنه أصحابه ، ولما علم ماليكه بالامر جاءوا الى داره وكسروا صناديقه ، ونهبوا أكثر ما فيها ، ونهبت خيله وأمواله وما نفعه تربية ماليكه واحسانه اليهم وخربت داره كأنها لم تكن في الامس ، أخربها الامراء الذين كانوا يركبون كل يوم الى خدمته ، ويقفون على بابه وهم أكثر من سبعين أميراً ، كانوا يتمنون ان ينظر الى أحد منهم نظرة ، وحمل من المقياس الى الشافعي فدفن عند والدته .

وكان يوماً مشهوداً وحمل على الاصابع ، وبكى عليه الناس ، وعمل له العزاء العظيم ، وكان له يوم مات ست وثلاثين سنة ، ولما وصل توران شاه الى المعسكر أخذ ماليك فخر الدين الصفار وبعض قماشه بنصف القيمة ولم يعطاهم درهما ، ولا عوض الورشة شيئا وكان الثمن خمسة عشر ألف دينار ، وكان اذا جلس جعل حسنات فخر الدين سيئات ، ولفخر الدين اشعار منها (٢) .

(*) هو الامير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وكان عاقلاً جواداً خليقاً بالملك ومحبوا ، ولما توفي الملك الصالح ندب الى الملك وامتنع ، وهو الذي ارسل ولا توران شاه يستحثه الحضور الى مصر) . سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٧٧٦ .

(١) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٧٧٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٧٧٧ - ٧٧٨ .

عصيت هوى نفسي صغيرا فعند ما رمتني الليالي بالمشيب والكبير
أطقت الهوى عكس القضية ليتسني خلقت كبيرا وانتقلت الى الصغر
وله أيضا :-

إذا تحققتوا ما عند صاحبكم من الفرام فذاك القدر يكفيه
انتم سلبتم فؤادي وهو منزلكم وصاحب البيت ادري بالذي فيه
وله في ملوك له توفي :
لا رغبة في الحياة من بعدك لي يا من بعباده تداني أجلي
ان مت ولم أمت انا واخجلي من عتيك لي في يوم عرض العملي

ويؤكد سوء العلاقة التي كانت بين توران شاه والماليك ، ما كان يقوله ويفعله
بشأنهم ، فكان اذا سكر ضرب الشمع بالسيوف وقال : هكذا أفعل بماليك أبي ، ويتهدد
الامراء بالقتل فثدوش قلوب الجميع عليه (١) .

ولقد زاد من كراهية الناس لتوران شاه انه احتجب عن الناس أكثر من أبيه ،
وقدم الأراذل وابعد الا ماشل ، وأهان ماليك أبيه الكبار .

وقد كان فيه نوع خفة وطيش ، وكان اذا سمع نقيها يقول مسألة كان يصيح ويقول
لا نسلم (٢) ، وفي هذا دلالة على طيشه وخفته ومخالفته لامور الدين .

* ومثلما ساءت العلاقة بين توران شاه وأمرأه الماليك ، فقد ساءت بينه وبين شجر
الدر ، وقد كان هو السبب في ذلك حيث ان شجر الدر ، كانت قد ذهبت من المنصورة
الى القاهرة بينما جاء هو الى المنصورة ، وأرسل لها من هناك يتهددها ، ويطلب اليها
بالاموال التي كانت عندها ، فأثارت عليه بعض ماليكها ، فدخلوا عليه يوم الاثنين السابع
والعشرين من محرم سنة ٦٤٨ هـ ، وكان يجلس على السباط ، فضربوه بالسيوف ، فتلقى
احدها بيده ، فقطع بعض أصابعه ، فهرب ودخل برجاً ، وأخذ يصيح من جرحني ، فرد
عليه بعضهم الحشيشين قال : لا والله لا البحرية والله لا أبقى منهم بقية ، واستدعى
المزين فخيط يده وهو يتوعدهم فقال بعضهم : تتموه والا أبادكم ، فدخلوا عليه فانهمز
الى أعلى البرج ، فاوقدوا النيران حول البرج ورموه بالنشاب فرمى بنفسه وهرب نحو البحر

(١) الكتبي (محمد بن شاكر) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٣ ، الذهبي ،

المصدر السابق ، ص ٢٢٧ ، سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٧٨٠ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٧٨٠ ، الذهبي ، المصدر السابق ،

ص ٢٢٧ ، الكتبي ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

وهو يقول : ما أريد الملك دعوني ارجع الى الحصن ، يا مسلمين ما فيكم من يصطنعني ويجيرني والعساكر كلها واقفة فما أجابه أحد والنشاب تأخذ ، وما أجاره أحد وأدركه المماليك وقطعوه قطعاً وبقي على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخاً ، ما يتجاسر أحد أن يدفنه حتى شفع فيه رسول الخليفة فحمل ودفن (١) ، ومقتله فقد تحققت رواية المماد بن درباس التي تقول : رأى جماعة من أصحابنا الملك الصالح أيوب في المنام وهو يقول : (٢)

قتلوه شر قتله	صار للعالم قتله
لم يراعوا فيه إلا	لا ولا من كان قبله
ستراهم عن قليل	لأقل الناس أكله

وهكذا وعلى هذه الصورة السريعة ختم حكم أسيرة أدت للإسلام وللعرب ولحصر خدمات جلى وذلك في العصور التاريخية التي مرت بها ، ألا وهي عصور الحروب الصليبية ، ولقد كان انهيار هذه الاسرة فاجعة بالنسبة للشعب الذي لم يكن يملك في تلك الايام من أمره شيئاً سوى الاحتجاج السلبي المتمثل في التعليق شعراً أو نثراً ، رمزاً أو مباشرة على الأحداث ، ولعل أبيات الشعر السالفة قد ادعاها ابن درباس على لسان الملك الصالح حتى لا يطاله تهديد أو عقاب .

وقال صاحب جمال الدين ابن مطروح يرثيه : (٣)

يا بعيد الليل من سمره	دائماً يبكي على سمره
خل ذا واندب معي ملكاً	ولت الدنيا على أثره
كانت الدنيا تطيب لنا	بين بادية ومحتضرة
سلبته الملك أسرته	واستووا غدرا على سمره
حسدوه حين فاتهم	في الشباب الفصن من عمره

وفيه يقول نور الدين بن سعيد :

ليت المعظم لم يسر من حصنه	يوماً ولا وافي السى أملكه
ان العناصر ان رأته مكمل	حسدته فاجتمعت على اهلاكه

(١) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٧٨١ ، المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٧٨٢ ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

(٣) الكشي ، المصدر السابق ، ص ٢٦٥ .

ويلاحظ في تلك الابيات السابقة ان قائلها قد امتدح الملك العظيم
توران شاء لما فيه من خصال ، على ان المصادر المختلفة ومنها المصدر الذي أخذت
منه هذه الابيات تعيب فيه ما كان عليه من خصال رذيلة كالخفة والطيش وسوء
الخلق .

وموت توران شاء فقد بدأ عصر حكم جديد يتشمل بسيطرة الماليك على
السلطة في حصر ، بعد ما اتفق على تنصيب شجر الدر بعده على كرسي الملك . كما
سيظهر في الصفحات القادمة من البحث .

محتويات الفصل الثاني

- ✓ شجر الدر . . نسبها ، من هو أبوها ، نشأتها
- ✓ تولي شجر الدر السلطة وسياستها في الحكم والادارة
- ✓ الحياة السياسية في صربعد تنازل شجر الدر عن السلطة
- علاقة عز الدين آيبك بأمرأه الشام
- ✓ الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في عهدى الصالح نجم الدين وشجر الدر
- * الحياة الثقافية
- * الحياة الاجتماعية والاقتصادية
- ✓ العمارة زمن الصالح نجم الدين أيوب وشجر الدر
- * الروضة
- * ضريح الصالح نجم الدين أيوب
- * قبعة شجر الدر
- نهاية الملك المعز عز الدين آيبك
- ✓ مقتل شجر الدر

الفصل الثاني

قيام دولة الماليك في مصر وتولي شجر الدر السلطة

على أثر وفاة ملك الصالح نجم الدين أيوب زوج شجر الدر ، خلا منصب السلطة في مصر ، من الزعيم أو القائد الذي يمكنه أن يدير دفة الأمور فيها ، وبخاصة في تلك الظروف الصعبة التي كانت تمر بالبلاد ، بسبب تراحم الاخطار عليها من الخارج مثلثة بالفرنسيين وعلى رأسهم ملكهم لويس التاسع ، وبالنظر الى هذه الأوضاع ، ولما تتمتع به شجر الدر من شخصية قوية اكتسبتها من مرافقتها لسيد ها وزوجها الملك الصالح ومشاركته محنته التي أصابته في بلاد الشام بسجنه في سجن قلعة الكرك عند ابن عمه الناصر ، ثم مرافقتها له الى مصر بعد أن أفرج عنه من السجن ، وكذلك مشاركته في حضور معركة المنصورة أثناء حملة الفرنسيين على مصر ، كل تلك الحوادث والظروف كان لها الأثر الكبير في صقل شخصية شجر الدر ، واكتسابها دورا متميزا عن بنات جنسها في ذلك الزمان ، وكذلك ليس غريبا على المجتمع آنذاك أن يتفق الماليك - وهم جزء من المجتمع - على تنصيب شجر الدر سلطانة على مصر ، وتعيين عز الدين آيبك التركماني أتابكا - ساعدا ومستشارا - وتعد هذه الحادثة بداية قيام دولة الماليك في مصر منذ سنة ٦٤٧ هـ (١٢٥٠ - ١٢٥٧ م) .

- وبالنظر لاهمية شجر الدر في موضوع الفصل فسوف أفرد لها جزءا خاصا في البحث منذ بداية حياتها عند سيد ها الملك الصالح نجم الدين أيوب وحتى وفاتها .

شجر الدر ... نسبها ، من هو أبوها ، نشأتها

لا يعرف على وجه التحديد من تكون هذه المرأة ، فالصادر التاريخية التي رجعت اليها ، لا تتحدث كثيرا عن هذا الجانب من حياتها ، أما لأنه لم تتوفر للمؤرخين في ذلك العصر المعلومات الصحيحة عن هذا الامر ، أو لانهم كانوا يفضلون عدم الحديث والتطرق الى هذه الناحية ، وهي الملحة في فترة من فترات التاريخ ، فان تطرقوا الى نسبها ونشأتها فانما هم بذلك يذكرون بحياتها الاولى كجارية ومملوكة ، ولكن وعلى الرغم من هذه التصورات لا سنن دراسة ما توفر من روايات .

تختلف المصادر التي رجعت اليها في تحديد نسب هذه المرأة ، فابن تغري بردي يذكر أنها من أصل تركي (١) ويذكر ذلك ابن العماد الحنبلي (٢) ، ولقد رجح هذا الا مر بعض المؤرخين المحدثين من الذين كتبوا عن شجر الدر مثل محمد سعيد العريان وجرجي زيدان . وربما ساعدهم وجعلهم يميلون الى هذا الاعتقاد ما ورد في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، حيث اعتبرها تركية ، وعدّها على رأس قائمة ملوك الترك الماليك (٣) ، وان يكن قد شك في نسبتها الى الترك حيث ذكر ان البعض يعتبرها أرمنية (٤) . ونجد مثل هذا الرأي عند أبي الفداء في المختصر (٥) وقد تأثر بهذا الاعتقاد من المؤرخين المحدثين ، الباز العربي ، فاعتبرها أرمنية (٦) .

ولئن كانت الروايات التاريخية ، تشير بعضها الى أنها تركية الأصل ، والبعض الاخر يشير الى كونها أرمنية الأصل ، الا أننا لا نجد ما يشير الى نسبها على وجه التحديد ، فكل ما وصلنا عن أصلها لا يعدو الا اشارات العابرة ، حتى أن محمد سعيد العريان في روايته الأدبية ، "شجر الدر" يقول عن أصلها ونسبها : "ان شجر الدر كانت فتاة مقطوعة الجذر ، لا يعرف لها أب ولا أم ، ولا أصل ، ولم تترك بعد موتها ولدا ولا بنتا ولا ذرية ، فكانت حياتها أعجب العجب ، ان ليس لها أصل يذكر ، ولا فرع يبقى ، وماتت قبل أن يأفل شبابها " (٧) .

وبالنظر لقلة الروايات ، فأنني لأحتمل تركيتها أو أرمنيته على محمل الجدل ، ولكنه يرجح التركية ، وحجتي في ذلك ترجع الى أن شجر الدر كانت على علاقات طيبة مع ممالك زوجها الملك الصالح الذين كان معظمهم أتراكا ، وكانوا يعتبرونها "خشداشة" لهم (٨) . ويؤكد لنا هذا مدى تأثيرهم الكبير عليها عندما مات الملك الصالح ، وتولت بعده أمور السلطنة ، فأيدوها وساعدوها كثيرا ، مثلما أيدوها ونصروها

- (١) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٧٤ .
- (٢) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٥ ، ص ٢٦٨ .
- (٣) المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦١ .
- (٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦١ .
- (٥) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .
- (٦) السيد الباز العربي ، مصر في عهد الايوبيين ، ص ١٤٦ .
- (٧) محمد سعيد العريان ، شجر الدر ، ص ١١ .
- (٨) المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٠٢ ، ابن تغري بردي ، ج ٦ ، ص ٣٧٧ .

ووقفوا على حمايتها عند مقتل زوجها الثاني المعز آيبك ، واتهامهم مالياً إياها بقتله ، ومحاولة الانتقام منها لقتلها ، ولكن مالياً استنابوا أن يمنعوها ويحموها منهم (١) . وما يدعم حجتي في ترجيحي تركيتها ، كونها كانت تجيد التركية ، والصالح كردى الأصل ، ولسانه لا بد أن يكون كرديا ، وقد جاء في كتاب السلوك أن آيد كسين الصالح لما سجنه المعز آيبك وقف تحت شباك شجر الدر وقال بالتركية خوفاً من أن يفهم مقالته أحد غير مولاه شجر الدر : " والله يا خوند ما عطنا ذنبا ، يوجب مسكنا الا انه لما سير يخطاب بنت صاحب الموصل ، ما هان علينا لأجلك فانا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم (الصالح) (٢) . وإذا أوضحت هذه العبارة حقيقة أن شجر الدر كانت تجيد التركية فقد أوضحت حقيقة أخرى هي ، تلك الصلة الروحية التي كانت تربط هذه المرأة بالأتراك المماليك حتى أنهم كانوا يفارون عليها من أى ضرر محتمل تحاها .

اذن فان شجر الدر تركية الأصل على مجمل الترجيح وليس التأكيد ، فمن يكون أبوها وجدها ٢٢ .

١ - من هو أبوها ؟

ابن تغرى بردى يقول : هي الملكة شجر الدر بنت عبد الله (٢) ولم يزد على ذلك أى اسم ، كما لم يذهب كهادة المؤرخين مسترسلا في ذكر النسب ، كما لم يذكر شيئا يتعلق بأبيها ، أو يؤكد اسمه ونسبه ، ولا نجد غيره من المصادر يشير الى ذلك ، بل نجد أصحابها يكتبون بذكر " شجر الدر أم خليل الصالحة " ومنهم من يزيد " المستعصية " أو الطقبة " بمصمة الدين " (٤) .

وهكذا فاننا نرى المؤرخين ايثارا للسلامة يسكتون عن ذكر هذا الاب الفاض فلا يشيرون اليه ، وإذا تفحصنا هذا الاسم رأينا اسلايا خالصا ، ولم يكن الا تراك في تلك الايام قد ألقوا عن اسمائهم التركية الخالصة ، الا أولئك الذين خضعوا للاسلام منذ زمن طويل ، ودرجوا على عادات المسلمين في التسمية ، فاذا راجعنا اسماء المماليك

- (١) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٣ ، عمر رضا كحالة ، اعلام النساء ، في عالم العرب والاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ .
- (٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٢ .
- (٣) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٧٣ .
- (٤) يوسف الحلواني ، تحفة الاحباب عن ملك مصر من الملوك والنواب (ميكوفيلم) ، مكتبة الجامعة الاردنية ، ص ٧٦ ، أبو الفدا (الحافظ بن كثير) البدائية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٧٩ ، خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ص ٢٣١ ، عمر رضا كحالة ، اعلام النساء ، ص ٢٨٨ .

الصالحية مجردة من القابها المضافة الى لفظة الدين (سيف الدين ، عز الدين ، نور الدين ،) فاننا نراها في غالبيتها أسما تركية (قمار ، آبيك ، أقطاي ، قلاوون ،) فكيف اذن تسنى لهذه الفتاة المطوكة أب يحمل اسما عربيا اسلاميا شهيرا أو شائعا كاسم عبد الله على خلاف ما درج عليه مواطنوه .

ولقلة الروايات التي توفرت حول هذه المسألة ، لما يمكنني من تحليلها ومناقشتها فالامر لا يعدو مجرد اعتقادات وآراء ، استنتجت من خلال الظروف والاحداث ، فأغلب الظن أن عبد الله هذا . اسم مخترع ، انتحلته شجر الدر عندما أصبحت سلطنة مصر ، وعز عليها أن لا يعرف أبوها ، وهل الملكة من بني أيوب انتسابا وليس نسبا ، وان صح هذا الاعتقاد على شجر الدر ، فانه لا يصح على السلاطين المماليك الذين جاءوا بعدها ان كان الواحد منهم ينتسب الى استاذ الذي اشتراه ورياء ووهبه الحرية ، فكان الواحد منهم يعرف بالصالحى او بالمعزى او بالمنصورى وهكذا .

ولم تشذ شجر الدر عن ذلك فقد كانت هي الاخرى تعرف بالصالحية ، ولا سيما وانها ارقى من درجة الاما ، فهي " أم ولد " ، ولأم الولد في الاسلام مكانة تعلو بها درجة الاما ، فلا يصح بيعها او التنازل عنها ، أو وهبها للغير ، وكانت تمنح الحرية مجرد أن ترزق بسولمد .

ومن وجهة نظر أخرى ، فلأن شجر الدر لا يعرف أبوها ، وهي الامة من الرقيق ، فقد أطلق عليها بنت عبد الله ، كما هو دارج في العالم الاسلامي حتى وقتنا الحاضر حيث يطلق كثيرا على اللقطاء من لا يعرف آباءهم أسماء مختلفة تلحق بعيد الله ، على اعتبار رمز العبودية لله ، وما لهذا الاسم من صفة دينية عند المسلمين ، فالجميع كلهم بعيد لله .

وسهما يكن من أمر فقد حظيت شجر الدر بمكانة رفيعة ، ومرموقة عند المسلمين ، وبخاصة في مصر للدور الذى لعبته خلال حياة زوجها ، الملك الصالح ومع وفاته . ولئن أحجمت المصادر التاريخية عن ذكر اسم أبيها إلا ابن تفرى بردى كما أسلفنا ، فانه يمكن القول بان المصادر المتوفرة جميعها أحجمت عن ذكر اسم جدها وعشيرتها ، فلم نجد أثرا لذلك على الاطلاق .

- نشأتها :-

لا نجد الكثير من الروايات التي تحدثنا عن حياة شجر الدر الأولى . غير الروايات التي تحدثنا عن حياتها كجارية وملوكة للملك الصالح نجم الدين أيوب ، فقد ذكر ابن تغري بردي ، " أنها كانت للصالح جارية فاعتقها وتزوجها وهو وال لوالده على الشرق ، ثم سارت معه لما حبسه الناصر داود - أثناء مطالبة بعرش مصر - إلى الكرك (١) .

ويذكر المقرئ أنها وضعت للصالح ولده الذي سماه (خليل) في عام ٦٣٧ هـ (٢) بينما يذكر ابن تغري بردي وهو الاقدم أنها أسقطت وكانت حاملا عند ما غدر الناصر بزوجه الصالح وأودعه - وهي معه - الحبس في الكرك (٣) .

ويبدو أن شجر الدر لم تكن ولدا خصبا حيث أنها رغم السنوات الأولى التي عاشتها مع الملك الصالح ، وبعد ذلك مع زوجها الثاني المعز ، لم نسمع أنها وضعت باستثناء خليل أي مولود ، وعلى ما يبدو أن حملها الذي أسقطته هو نفسه الذي سموه خليل ، إذ يفقد ذكره ، في المصادر التاريخية باستثناء الإشارة إلى مولده أو تلقيب أمه باسمه (أم خليل) .

وإذا كان الصالح متزوجا قبل شجر الدر من زوجة هي أم ولي عهده توران شاه ، وربما أم ولده المغيث أيضا ، وإذا كانت أم هذين الأميرين على قيد الحياة في الوقت الذي كانت فيه شجر الدر زوجة للصالح ، إلا أن الحظوة كانت كما يظهر لشجر الدر دون سواها ، فهي التي نسمع عنها أنها ترافق الملك الصالح في رحلته لاحتلال عرش السلطنة من أخيه المعادل ، وهي التي تساق معه إلى سجنه في الكرك ، وهي التي يموت في غرفتها أثناء معركة المنصورة ، وهذا ما يؤيد ذكره أبو المحاسن بقوله : " ولا زالت في عظمتها من الحشم والخدم واليهما غالب تدبير الديار المصرية في حياة سيدها الملك الصالح وفي مرضه وبعد موته ، والا مور تديرها على أكمل وجه (٤) ،

(١) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٧٣ .

(٢) المقرئ ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٩ .

(٣) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣ .

(٤) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٧٣ .

والحقيقة ان الصالح لم يكن بارعا بين رجال عصره ، فقد عرف التسرى بالحريم وعرف تعدد الزوجات ايضا ، وشجر الدر في عصته ، فقد ذكر ان للصالح في وقت واحد زوجتين ، احدهما شجر الدر ، والاخرى بنت المعالمة ، وقد تزوجها بعد مطوكة الجوكندار (١) (*) .

وقد عرف الصالح بحبه للنساء ، فقد كان كثير الاتصال بجواريه ، وقد ولد له من احدى محظياته ولد ذكر اراد ان يخلد مولده فأمر ببناء قلعة الجزيرة - الروضة - لتكون ذكرا لهذه المناسبة ويحدثنا المقريزي في نفس المناسبة عن اهل الصالح وحرمة (٢) . ولهايتين اللفظيتين ربما دلالة الى كثرة النساء من الجوارى التي كان الصالح يمتلكهن .

ولقد حظيت شجر الدر بما لم تحظ به امرأة من نساء الصالح ، فقد كانت ذات عقل وحزم ، كاتبة قارئة ، لها معرفة تامة باحوال المملكة ، وقد نالت من العز والرفعة ما لم تنله امرأة قبلها وبعدها (٣) .

وتفسر لنا تلك العبارة بعض الاسباب التي ساعدت شجر الدر في الوصول الى تلك المكانة التي وصلت لها عند الملك الصالح حتى اصبحت بعد موته سلطانة مصر ، فهي امرأة ذات عقل ، وذكية ، متعلمة ، وربما مثقفة ، وهي القارئة والكاتبة ، حتى انها كانت تكتب خطا يشبه خط الملك الصالح ، فكانت تعلم على التواقيع ، كما انها المرأة الحازمة ، القوية الشجاعة ، ولا ادل على ذلك وأكبر من كتمانها خبر وفاة زوجها أثناء معركة المنصورة .

وقبل ان تصل شجر الدر الى هذه المكانة ، فقد عاشت جزءا من حياتها حارية ، من الرقيق ، وورق شجر الدر واضح من اسمها نفسه ، فاما ذلك العصر كن يسمين باسماء ذات دلالة جمالية تحريفية ، تشير الشهوة في الرجال ترغيبا لهم

(١) ابن تفرى بردي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٣١ .

(٢) المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠١ .

(٣) الصفدي (صلاح الدين خليل بن آيبك) ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ق ١٦ ، ص ١٢٠ ، خير الدين الزركلي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٨ ، البستاني ،

دائرة المعارف ، ١٠٠٠ ، ص ٢٤٤ ، احمد الشتاوي ، دائرة المعارف الاسلامية ،

ج ١٠ ، ص ١٢٥ .

(*) الجوكندار : كلمة فارسية مركبة من كلمتين : "جوكان" و "دار" ومعناها حامل الصولجان في لعب الكرة .

لشرايهم ، وقد كانت ام الصالح جارية وكان اسمها (ورد المنى) (١) ويبدو أن صاحب الجارية هو الذي كان يطلق عليها اسمها ، لتحقيق اكبر قدر من الربح عند بيعها .

وحول تحقيق الاسم لا بد من الاشارة الى ان المصادر التاريخية تذكر الاسم بدون تا* التانيث وتكتفي بـ " شجر الدر " (٢) ، بينما نجد بعض المصادر الاخرى تذكر الاسم مرتبطاً بالتا* " شجرة الدر " احيانا وأحيانا اخرى بدون تا* (٣) ، ولعل في هذا دلالة على انها كانت تعرف بالاسمين معا .

(١) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٣٩

(٢) الكتيب ، (محمد بن شاكر) ، فوات الوفيات والذيل عليها ، ص ٢٦٤ ، المقرئى ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .

(٣) الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

٢ - تولي شجر الدر السلطة وسياستها في الحكم والادارة :

بعد وفاة الملك المعظم توران شاه ، اجتمع الامراء المالكيك على تنصيب شجر الدر ملكة مصر ، فخطب لها على المنابر ، وضربت السكة باسمها ، ووضعت علامتها على المراسم ، وكان نص علامتها (ام خليل) ، وربما هي بهذا تود أن تستمد عظمتها من كونها ام خليل ، الطفل الايوبي . ابن الملك الصالح نجم الدين ايوب ، كما انه قد تم تعيين عز الدين الجاشنكير آيبك التركماني أتابكا على العساكر ، وكان الخطباء يدعون لها على المنابر بقولهم : " اللهم أدم سلطان الستر الرفيع ، والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين والدة الملك خليل " ، ومنهم من كان يدعو لها بعد الدعاء للخليفة بقولسه : " واحفظ اللهم الجهة الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل صاحبة الملك الصالح " (١) .

وتؤكد لنا بعض الروايات ان سلطنة شجر الدر لم تكن على مصر وحدها بل امتدت الى الشام فقد ورد أنه " لما قتل - اي توران شاه - خطاب على منابر الشام ومصر لام خليل شجر الدر معشوقة الملك الصالح " (٢) .

ويرجع سبب اجماع الامراء المالكيك على تولية شجر الدر السلطة الى عدة أسباب يمكن استخلاصها من خلال تاريخ حياتها مع زوجها الملك الصالح ، فالمالكيك ربما يكونون قد اعتادوا على الولاة للملك الصالح وشجر الدر في حياته ، اذ انها لم تكن زوجة فحسب ، بل كان لها دور قيادي في ادارة دفة الحكم في حياته وأثناء مرضه ، وقد يكون هذا العامل هو السبب الرئيسي الذي دفعهم للعمل تحت امرة امرأة ، وهم العساكر المقاطون الاشداء ، وبالإضافة الى هذا السبب فهناك أسباب أخرى قد يكون أهمها أيضا خشيتهم من الاهالي ، فيما لو تولّى عليهم واحد من المالكيك ولا سيما في تلك الفترة التي أعقبت وفاة الملك المعظم توران شاه - وهم الذين دبروا مقتله - وحتى لا يعد مقتله توران شاه انقلابا على السلطة وطمعا منهم بها ، وربما كذلك كان الامراء المالكيك يخشون بعضهم بعضا ويخافون على أنفسهم من أنفسهم ، كما أظهرت لنا صفحات التاريخ فيما بعد ، ولربما يكون من الاسباب الاخرى هو ان المالكيك حتى هذه الفترة ما زالوا معتادين على حياة الولاة ، لا سيما وان التربية التي تلقوها تحتم عليهم ذلك تجاه أساتذتهم ، ولم يكن قد ظهر منهم من يجروء على المطالبة بذلك أو العمل من أجله ، فكان اتفاقهم على تنصيب

(١) - المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٢ ، ابن خلدون ، المصدر السابق

ص ٣٦١ .

(٢) - الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ . الكتبي ، المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

شجر الدر ، وهي واحدة منهم ، ولكنها تتميز عنهم في أنها زوجة أستاذهم وأم خليل الأيوبي .

ولم تعتد سلطنة شجر الدر أكثر من ثلاثة أشهر كما ذكر ابن تفرى بردى (١) أو ثمانين يوما ، كما يذكر صاحب السلوك (٢) ويبدو أن هذه الايام القصيرة كانت حافلة بصراع كبير متعدد الجوانب والجبهات خاضته هذه المرأة السلطنة ، فعلى جبهة الصراع مع الفرنج الذين ما زالوا على أرض مصر ، ندبت الامير حسام الدين محمد بن ابي علي للمفاوضة مع لويس التاسع المعروف بكتب التاريخ الاسلامي باسم برنس او فرنسيس أو ريند افرنسيس (٣) ، الذي كان واقفا في الاسر من ايام السلطان توران شاه ، ولقد نجحت المفاوضات واتفق على ان يجلي الفرنج دمياط وأن يؤدي الملك نصف ما عليه من أموال والمقابل يفك أسره ويرحل الى بلاده (٤) ، وفي سنة ٦٤٨ هـ رحل الفرنسيس الى عكا عن طريق البحر ، وتسلم المسلمون دمياط وبهذه المناسبة أشد الشعراء قصائد ، من أشهرها قصيدة جمال الدين بن مطروح الذي يقول فيها : (٥)

قل للفرنسيس اذا جثته	مقال صدق من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع السريح
أتيت مصر تبتغي ملكها	تحسب أن الزمريا طبل ريح
فساقت الحين الى ادهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك اودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
خسئون الفا لا ترى منهم	الا قتيل او اسيرا جريح
وفكك الله لأمثاله	لعل عيسى منكم يستريح
ان كان باباكم بدا راضيا	فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم ان اضروا عودة	لاخذ ثأرا ولعقد صحيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح

ويحد أن استولى المسلمون على دمياط ، عمت البشرى الراضى المصرية ، وعادت المعسكر الى القاهرة في اليوم الثالث عشر من صفر سنة ٦٤٨ هـ ، وأخذت شجر الدر تنفق على الامراء وأرباب الدولة الاموال والهدايا (٦) .

- (١) ابن تفرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٧٤ .
- (٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٨ .
- (٣) نفس المصدر ، ص ٣٦٢ .
- (٤) نفس المصدر ، ص ٣٦٣ .
- (٥) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٣٦١ .
- (٦) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٦ .

ولقد كانت شجرة الدر - على ما يمتقد - تريد المفاوضات ، وهذه النتيجة نصرا محسوسا تتقدم به من الناس مع بداية توليها للامور ، لكي تضمن لنفسها رضى الشعب وتقديره ، ويبدو أن ما توقعته شجرة الدر قد تحقق ، حيث أنه لما استعاد المسلمون ديار سارت البشائر الى القاهرة ومصر ، وسائر الاعمال ، وأعلن الناس بالسرور والفرح (١) .

وهي اذا دفعت عن حدود مصر خطرا يهدد أمنها ، فقد أراحت الجيش من أعباء التصدي لذلك الخطر ، حيث عادت المسالك الى القاهرة ، وهي نتيجة ايجابية اخرى من نتائج الصلح ، وبالإضافة الى ذلك ، فإن فائدة اخرى سوف تتحقق ، وهي توفير مبلغ كبير من المال للخرينة ، اذا ما وقى الفرنسيين بما التزم به عند توقيع شروط الصلح . ولكنه كما جاء في كتاب المقرئى فان الفرنسيين لم يبر بوعده الذى قطعه على نفسه بعدم العودة الى بلاد المسلمين وقتالهم ، اذ انطلق الى تونس من بلاد افريقية واستنفر منها ملوك النصارى ، وطلب من البابا أن يستحثهم على السير اليه ، ومساعدته فوافقه البابا على طلبه بل وأطلق يده في أموال الكنيسة ينفق منها ما يشاء لتجهيز ما يلزمه ، ومن الملوك الذين أجابوه لطلبه ملك إنجلترا وملك اسكوتلندا ، وملك ثورك وملك برشلونة ، مما دفع ملك تونس أبو عبد الله محمد بن المستنصر بالله ابن الامير ابي زكريا علي ابن الشيخ ابي محمد عبد الواحد ابن الشيخ ابي حفص عمر الى طلب الصلح وبعث مع رسله ثمانون ألف دينار أخذها الفرنسيين ولم يوافق على المصالحة ، ونزل بساحل قرطبة سنة ٦٦٨ هـ - ومعه من الفرسان والمشاة ما يقارب من ستة وثلاثين ألف رجل ، وأقاموا بها حوالي ستة أشهر ، فقابلهم المسلمون في النصف من محرم سنة ٦٦٩ هـ ، وكادت أن تكون الغلبة للفرنسيين وجنوده بعد أن قتل من المسلمين ومن الفرنج الكثير ، ولكن الأمور آلت الى غير ذلك اثر وفاة الملك الفرنسيين ، مما جعل الفرنسيين يوافقون على الصلح .

وقد قال رجل من أهل تونس واسمه أحمد بن اسماعيل في الفرنسيين بيتين من الشعر يقول فيهما :- (٢)

يا فرنسيين هذه أخت مصر	فتأهب لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قسيرا	وطواشيك منكرو ونكير

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٦ .

(٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٥ .

وتتمثل سياسة شجر الدر الداخلية بعلاقاتها المحلية داخل حدود مصر، وعلاقاتها بأمراء الشام من الأيوبيين، وقد يرى البعض أن تكون علاقاتها مع الأيوبيين في الشام من ضمن علاقاتها الخارجية شأنها شأن علاقاتها مع الفرنسيين، ولكن الباحث يرى أن تكون ضمن العلاقات الداخلية على اعتبار أن مصر والشام ما تزالان تتبعان - ولو اسمياً - لسلطان الخليفة العباسي، بالإضافة إلى القواسم المشتركة بينهما، ومن صلات دينية وقومية امتدت منذ الفتح الإسلامي لهما في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

وقد عطلت شجر الدر منذ بداية عهد ها على كسب الممالك البحرية* وأرضائهم بتقديم ما يرضيهم من الأموال والجنود، فعملوا في خدمتها ورضوا عنها، كما أن المصريين، رضوا عن حكمها، وأقيمت الصلوات باسمها، وصكت النقود باسمائها، المستعصمية، الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين، وكانت تتمسك بلقب "أم خليل" صاحبة الملك الصالح (١) إشارة إلى صلتها بالأيوبيين، وعلى الأخص بزوجه الملك الصالح، وحتى لا يظن المصريون أن انقلاباً قد حدث في مصر بزعامة الممالك، ولأن زعامة المسلمين وتسلمهم للسلطة على حساب ساداتهم من الأيوبيين أمر غير مقبول.

ولما كانت العادة قد جرت منذ السلطان صلاح الدين الأيوبي أن يخضع ملوك وأمراء الشام لسلطان مصر، بادرت شجر الدر منذ تسلمها زمام الأمور إلى إرسال الخطيب أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الأسعدي* لضمان ولائها واستخلافهم على ذلك (٢)، ولكنه ليس أمراً غريباً أن يثور أمراء الشام على هذا الطلب ويرفضوه وهم من سلالة وأحفاد صلاح الدين، ويرون أنفسهم أحق بامارة وحكم مصر وبلاد الشام.

من ممالك الملك الصالح، وتسميتهم بالبحرية من المرجح أن يكون راجعاً إلى اختيار الملك الصالح جزيرة الروضة في بحر النيل مركزاً لهم، ومعظمهم من الأتراك من بلاد الققماق - شمال البحر الأسود - ومن بلاد القوقاز، قرب بحر قزوين، ويجمع المؤرخون على أنهم امتازوا عن غيرهم من الممالك بجمال الهيئة وحسن الطلعة وقوة البأس والشجاعة النادرة ويفضل صفاتهم هذه تمكنوا من حكم مصر، بل واستاثروا بحكمها حوالي قرن وثلث من الزمان (٦٤٨هـ - ٧٨٤/١٢٥٠م - ١٣٨١م) (٢).

- | | |
|--|-----|
| المقريزي، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٣٦٢، ٣٦٦. | (١) |
| سعيد عبد الفتاح عاشور، <u>الأيوبيون والمماليك في مصر والشام</u> ، ص ١٩٦. | (٢) |
| المقريزي، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٣٦٦. | (٣) |
| الخطيب أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الأسعدي. | * |

ومن الذين غلطوا الخطيب أصيل ورفضوا طلبه ، نائب السلطنة الامير جمال الدين بن يغمور * والا مراة القيصرية * بل ولم يقف الا مربهم الى حد المغالطة والرفض ، بل ثار بعضهم على ذلك ومنهم الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبي بكر بن أيوب * الذي استولى في الحال على مدينة غزة ونصب نفسه ملكا عليها ، ولما علم الماليك بذلك توجهوا الى داره بالقاهرة واحاطوا بها ثم استولوا على ما كان له بها .

ومن الذين ثاروا على تولي الماليك السلطنة الياواشي بدر الدين لؤلؤ الصوابي الصالحي * نائب الكرك * والشويك * وقام باخراج الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل من سجنه وملكه الكرك والشويك وأعمالهما ، وضمن له ولاء الناس باستحلافهم على الطاعة له . وقام نفسه على رعايته وتولي أمور الحكم لصفر سنة (١) .

وامتنع الامراة القيصرية في دمشق عن الحلف بشجر الدر ، وطالبوا من الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب - صاحب حلب - المسير الى دمشق وحكمها ، فسار اليها في عساكره ودخلها دون قتال بعد أن فتح له امراة القيصرية أبوابها ، وكان عليها آنذاك الامير ثامر الدين ابو المعالي حسين بن عزيز بن أبي الفوارس القيمري الكردي ، وكان اول ما فعله الملك الناصر صلاح الدين الوفاء للامراة القيصرية ، وللا مير جمال الدين بن يغمور ، وقبض على عدد من الامراة الماليك الصالحية ، ثم تمكن من حكم قلعة دمشق ، ووزع ما كان بها من الاموال على الملوك والامراة .

وبعد تلك الحوادث ، بدأ الماليك يشعرون بضرورة التصدي للملك الناصر - صاحب حلب - فجددوا الايمان لشجر الدر ، ولعز الدين آييك مقدما على العساكر ، وجهزت العساكر ودارت النقباء على العساكر يأمرهم بالسفر الى الشام ، وفي هذه الاثناء وصل خبر دخول الناصر دمشق ، وبعد أن سلمها له الماليك القيصرية ، ووقعت الاضطرابات

- جمال الدين بن يغمور . *
- الامراة القيصرية : نسبة الى قيسر ، بالفتح ثم السكون ، وميم مضمومة ، وراة : وهي قلعة في الجبال بين الموصل وخراسان وأهلها أكراد . *
- الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبي بكر بن أيوب . *
- بدر الدين لؤلؤ الصوابي الصالحي . *
- الكرك ، بفتح الحاء ، قلعة حصينة جدا في طرف الشام بين ايلة وحر القلزم وبيت المقدس وهي على جبل عال . . وهي اليوم مدينة الكرك في الاردن . *
- الشويك ، بالفتح ثم السكون ، ثم الباء الموحدة المفتوحة وآخره كاف ، قلعة حصينة في اطراف الشام بين عمان وايلة قرب الكرك ، وهي اليوم قرية الشويك في الاردن . *
- (١) المقريزي ، المصدر السابق ، ج (١) ، ص ٣٦٦ .

في القاهرة ، وقبض على عدد من الامراء المماليك الذين ليسوا من الامراء الترك ، وعلى من يتهمون بالميل الى الملك الناصر ، ولعل من أهم الاحداث التي حصلت ابتداءً من احتلال الناصر لمدينة دمشق زواج مقدم العساكر الامير عز الدين آيبك من شجر الدر في التاسع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م وفي نفس العام خلعت شجر الدر نفسها من ملك مصر ، ونزلت عنه لعز الدين آيبك ، بعد مدة حكم لها لم تزيد عن ثمانين يوماً (١) .

ولم تنته علاقة حكم مصر بامراء الشام على اثر اعتزال شجر الدر للسلطة ، بل استمرت هذه العلاقات قائمة بين علاقات حربية وسلمية على ما سيظهر في الصفحات القادمة من البحث .

(١) المقرئ ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ابن تغري بوردى ،
المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

٣ - الحياة السياسية في مصر بعد تنازل شجر الدر عن السلطة

لقد أكد وجود شجر الدر على رأس السلطة في مصر قيام دولة المماليك الأولى فيها ، وزاد من هذا التأكد انتقال السلطة الى زوجها الثاني عز الدين آييك* أحد أمراء المماليك الذين لا تربطهم بالبيت الايوبي أى علاقة قرى أو نسب مثلما كانت ترتبط به شجر الدر وهي زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب . فعز الدين آييك مجرد ملوك من ممالك الملك الصالح ترفع بالدرجات حتى وصل الى ما وصل اليه . ولئن اعتبرنا وصول شجر الدر الى السلطة اشارة على قيام دولة المماليك الأولى في مصر ، فان وصول عز الدين لها يعتبر تأكيدا على ذلك ، فلا يمكننا اعتباره للسلطة الايوبية ، مثلما يمكن اعتبار شجر الدر .

ويعتبر ابن تغرى بردى عز الدين أول ملوك الترك بالديار المصرية ، وهم الملوك الذين مستهم الرق غير أولادهم ، ويورد شعرا فيهم على لسان بعض الناس دون تحديد من القائل وجاء في هذه الابيات : (١)

أييك قطز يعقبو ببيرس يا ذا الدين بعده قلاوون بعده كئيغالا لا جين
بيرس يرقوق بعده شيخ ذو التبين ططر برسباى جقمق صاحب التمكن

ويظهر من سياق هذه الابيات الشعرية ، انها ابيات عامة ربما تكون العامة هي التي تناقلتها دون تحديد قائلها .

ومما ساعد على وصول عز الدين آييك الى السلطة فضلا عن تنازل شجر الدر له عنها بعد زواجه منها في التاسع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ ، موقف الخليفة المستعصم بالله* من تولي شجر الدر السلطة في مصر ، ان كتب الى اهل مصر رسالة جاء

* هو الملك المعز عز الدين آييك الجاشنكير التركمانى الصالحى كان تركي الاصل والجنس ، فانتقل من ملك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من بعض اولاد التركمانى فعرف بين البحرية بآييك التركمانى ، وترقى عنده في الخدم حتى صار احد الأمراء الصالحين وعلمه جاشنكير ، الى ان مات الملك الصالح وقتل بعده ابنه الملك المعظم فصار اتاك المسكر مع شجر الدر .

المقريزى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٨ .

(١) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٥ .

* المستعصم بالله ابو احمد عبد الله امير المؤمنين ابن الامام المستنصر بالله ابي جعفر المنصور بن الامام الظاهر بامر الله ابي نصر محمد بن الامام الناصر لدين الله ابي العباس احمد ، اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١ .

فيها ، "اعلمونا ان كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل اليكم من يصلح لها ، أما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه قال : " لا يصلح قوم ولوا أمرهم امرأة " . وانكر عليهم بسبب ذلك غاية الانكار (١) .

ويذكر المقرئ ان شجر الدر سمعت ابياتا من الشعر - دون ان يحدد قائلها - تقول :

النساء ناقصات عقل ودين ما رأينا لهن رأيا سنيا
ولا جل الكمال لم يجعل الله تعالى من النساء نبيا

وعلى أثرها جمعت الامراء والقضاة وخلعت نفسها عن السلطة برضاها ، فكانت مدة سلطنتها بمصر ثلاثة أشهر الاياما . ولما خلعت نفسها من السلطنة اشار عليها القاضي تاج الدين بن بنت الاعز أن تتزوج بالا مير آييك التركماني ، ولا زال يتلطف بها حتى أذعنت ، وقام هو نفسه بعقد العقد بينهما ، وقام بجارية عز الدين آييك التركماني بالسلطنة (٢) .

ويؤكد ابن اياس أن بداية دولة المماليك في مصر مع بداية تولي عز الدين آييك السلطنة فيها . وما يثبت ذلك اعتباره شجر الدر من الايوبيين ، حيث يورد أبياتا شعرية على لسان ابي الحسين بن الجزار فيمن ولي ملك مصر من بني أيوب ، وهم الاكراد والابيات تقول (٣) :

ثم تولاها الصلاح يوسف ثم العزيز ابنه مستنصف
ثم تولاها الافضل نور الدين وبعده العادل ذو التمكين
ثم ابنه الكامل ثم العادل كلاهما بالحكم فيها عادل
ثم أتى الصالح وهو الاعظم ثم تولاها ابنه المعظم
وبعده أم خليل ملكوت وطالت الافعال منها وزكت
والملك الاشرف كان طفلا فلم يدبر عقلها والحلا

ان هذا التسلسل التاريخي لمن ملك مصر من بني أيوب يؤكد الاعتقاد بان الناس في ذلك الزمان قد يعتقدون بان شجر الدر ما هي الا استمرار للبيت الايوبي الذي كانت

(١) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٨٧ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٨٧ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٨٧ .

نهايته باطاحة الملك الاشرف عن السلطة بعد أن عزله عز الدين عنها . ويزيد من صحة هذا الاعتقاد ان ابن اياس خص فترة عز الدين آيبك بعنوان خاص في كتابه يؤكد هذا المعنى والعنوان بالنص هو " ذكر ابتداء دولة الاتراك بمصر " (١) .

ولقد ساعد على تدعيم عز الدين آيبك في السلطنة موافقة امراء المماليك عليه ، لانه كان من أواسط الامراء ، وكان معروفا بالسداد ، وملازمة الصلاة ، ولا يشرب الخمر ، وعنده كرم وسعة صدر ولين جانب ، ومما دفع المماليك لجبايعته أنه من أواسط الامراء ، وأنهم متى أرادوا تنحيته عن الملك تحقق لهم ، وذلك لعدم شوكته فبايعوه وسلطنوه وأجلسوه في دست الملك ، في أواخر شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ ، وخملت الفاشية * بين يديه وركب بشعائر السلطنة وتم أمره في السلطنة وخطاب له على المنابر ونودي في القاهرة ومصر بسلطنته ، ولم يدم هذا الواقع أكثر من خمسة أيام عندما ثار المماليك البحرية الصالحة وقالوا لا بد لنا من سلطان يكون من بني أيوب يحتج الكل على طاعته ، وأتفقوا على أن يكون الملك المعز آيبك أتابكا عليهم ، واختاروا أن يقيموا صبيا عليهم من بني أيوب ليكون له اسم السلطنة فوق الاتفاق على الملك الاشرف مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر السعدي أقسيس ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبي بكر ابن الامير نجم الدين أيوب ، وكان صبيا لا يزيد عمره عن عشر سنين ، فأحضروه وسلطنوه وخطبوا له ، وجعلوا الملك المعز آيبك التركماني أتابكا ، وتم ذلك فكان التوقيع يخرج صورته " رسم بالامر العالي المولوي السلطاني الطكي الاشرفي والطكي المعزى " (٢) .

وقد استمر الملك المعز عز الدين آيبك أتابكا للملك الاشرف حتى سنة ٦٥٢ هـ عندما أبطل المعز اسم الملك الاشرف وأنزله عن عاتقه القطبيات * (٣) وأستقر بذلك الملك له دون غيره بعد أن قويت شوكته وأنشأ له ممالكا وأقام له عاصمة * (٤)

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٨٨ .

(*) الفاشية : وتعني الملابس الطوكية .

(٢) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٦ ، اليونيني ، المصدر السابق ،

ج ١ ، ص ٥٤ - ٥٦ .

(*) (هن بنات الملك العادل الكبير ابن أيوب المعروفات بالقطبيات نسبة الى شقيقهن الملك المفضل قطب الدين ابن الملك العادل) ، ابن تغري بردي ،

المصدر السابق ، ج ٧ ، حاشية ص ٦ .

(٣) الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢٤٣ ، المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ،

ص ٢٦٩ ، اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ .

Lane-poole, Stanley, A history of Egypt in the middle Ages, P.249

(٤) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٠ .

ملائكة عز الدين آييك بأمر الشام :

منذ اليوم الاول على تسلم عز الدين آييك السلطنة في مصر وضحت العلاقة بينه وبين امراء الشام ، حيث انهم لما سمعوا بخبر توليته ثاروا على سلطته ، وقام الملك المغيث عمر بالاستيلاء على الكرك ، والشويك ، والملك السعيد قلعة الصبيبة ، وكان هذا سببا في تجمع امراء المعاليك واتفاقهم على أن يولوا واحدا من بني أيوب السلطنة ارضا لا امرا الشام وخشية أن تنفصل الشام عن مصر (١) .

وكان في غزة جماعة من العسكر عليهم الامير ركن الدين خاص ترك ، لما سمعوا بخبر سلطنة عز الدين آييك رجعوا الى الصالحية واتفقوا مع بعض الامراء على اقامة الملك المغيث عمر بن العادل الصغير صاحب الكرك وخطبوا له بالصالحية ولما سمع عز الدين آييك بالخبر أمر بأن ينادى بالقاهرة ومصر كلها أن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي وأن الملك المعز عز الدين آييك نائبه بها ، وحددت الايمان للملك الاشرف والملك المعز آييك ، وأمر عز الدين بأن ينقش اسميهما على السكة وأن يبرز اسماهما على التواقيع والمراسيم (٢) ، وركب الملك الاشرف والمعز بالصناجق السلطانية وشقا القاهرة والمعز يحجب الاشرف (٣) .

وفي سنة ٦٤٨ هـ كان الناصر صلاح الدين يوسف قد ملك دمشق ، ولم تفض سنة على ذلك حتى طمع في أخذ مصر بتحريض من الامير شمس الدين لؤلؤ الايني (٤) ، وخرج الناصر من دمشق بعساكره متوجها نحو مصر ومعه الملك النضال عماد الدين اسماعيل بن العادل ابي بكر ابن أيوب والملك الاشرف موسى بن المنصور ابراهيم بن شيركوه والملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين الكبير ، وأخوه نصر الدين والملك الظاهر شادى بن الناصر داود وأخوه الملك الامجد حسن والملك الامجد تقي الدين عباس بن العادل وملوك آخرين (٥) .

- (١) المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٩ .
- (٢) اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ ، المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٠ .
- (٣) المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٠ .
- (٤) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٦ ، المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٠ .
- (٥) المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٢ .

ولما ورد خبر ذلك التجمع من ملوك بني أيوب اضطربت الدولة في مصر وصدر مرسوم بجمع العربان من الصعيد ، وتم القبض على جماعة من الأمراء ، أتهموا بالميل إلى الملك الناصر ، وعندما وصل الخبر بعد وصول جيش الملوك الأيوبيين إلى غزة لملاقاتهم الأمير حسام الدين أبو علي من القاهرة ، وبرز الأمير فارس الدين أقطاي الجندار - مقدم البحرية - على رأس المعسكر من الترك ، واحتجعت المعسكر بالصالحية بعد أن استناب الملك المعز عز الدين آييك بديار مصر الأمير علاء الدين البندقدار وترك بقلعة الجبل الملك الأشرف موسى والتقى الطرفان في معركة كبيرة انتهت بانتصار عز الدين وعساكر المصريين على عساكر الملوك الأيوبيين ، وأسروا من ملوكهم الملك الصالح اسماعيل وأولاده ، ونقلوهم معهم إلى القاهرة وسجنوهم فيها ، وكانت نهايتهم في السجن ، وأما الملك الناصر ومن بقي معه فقد هزموا هاربين إلى الشام (١) .

ونتيجة لهذه الواقعة ، فإن الملك المعز عز الدين آييك قد عظم أمره وثبت قواعده ملكه وحكمه ، ويؤكد ذلك قبول الملك الناصر اتفاقاً تم عقده بينه وبين الملك المعز ينص على أن يكون للمعز وحشداً شتية الممالك الصالحية البحرية الديار المصرية وغزة والقدس وما بقي بعد ذلك من البلاد الشامية للملك الناصر صلاح الدين يوسف وأفرج المعز عن كان عنده من الملوك الأيوبيين الأسرى (٢) .

ويؤكد على قوة عز الدين آييك ، وتفرد بالسلطة تمكنه من القضاء على الأمير أقطاي بعد أن كانت قوت شوكة ، والتف حوله عدد كبير من الممالك حتى صار يركب بالشاويش وغيره من شعائر الملك وكان أصحابه ينادونه بالملك الجواد . وكانت نهايته بعد ما تقدم لخطبة بنت الملك المعظم تقي الدين محمود صاحب حماة ، وطالب من عز الدين أن يسمح لها بالسكنى في القلعة إذ لا يليق أن تسكن بالبلد ، وهي من بنات الملوك فحنق عليه عز الدين واعتبر ذلك تطاولاً منه على السلطان ، ومن أجل التخلص منه بعث الملك عز الدين آييك يستشير الملك الناصر صلاح الدين في أمره ولكن جواب الثاني قد طال ، مما دفع بالملك عز الدين آييك على تجهيز جماعة للفتك به ، ومنهم الأمير سيف الدين قطز المقرئ (الذي أصبح سلطاناً فيما بعد) ، وبالفعل كان للملك عز الدين ما أراد عندما دخل أقطاي يوماً على الملك المعز دار السلطنة بقلعة الجبل وثب عليه جماعته وقتلوه (٣) .

(١) ابن تفرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٦ - ١٠ ، المقرئ ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٨ .

(٢) ابن تفرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ١٢ ، المقرئ ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢ ، ص ٣٩٠ .

وانتهى الملك المعز بموته من أشد المنافسين له خاصة بعد أن تفرق ماله من بعده
فمنهم من قصد المغيث بالكرك ، ومنهم من سار إلى الملك الناصر بدشق ، ومنهم من أقام
ببلاد الغور والبلقاء والكرك والشوبك والقدس (١) .

ولما وجد عز الدين نفسه بهذه القوة ، والمنعة تشجع وقبض على شريكه في الملك
الملك الأشرف ، وسجنه بقلعة الجبل ، وانفرد هو بالسلطنة لوحده (٢) .

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩١ .

(٢) ابن أياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٢ .

٤ - الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في عهدى الصالح نجم الدين أيوب

وشجر الدر

- الحياة الثقافية :

ليس من اليسير أن نتحدث عن الحياة الادبية في زمن حكم شجر الدر ، ذلك أن أيام حكمها كانت معدودة ، فان الحديث عن الحياة الادبية في عصرها هو حديث عن هذا اللون من النشاط الانساني في فترة زمنية جاء حكم شجر الدر خلالها ، فالحياة الادبية كأي نشاط انساني آخر لا يمكن أن تبدأ من لا شيء بصورة مفاجئة ، كما انها لا يمكن ان تتوقف عن العطاء فجأة ، كذلك فانها سيل متصل قد يشتد ويقوى نتيجة معطيات معينة وقد يضعف دون أن يخبو نتيجة معطيات أخرى وبإحدى يدي يد لا بد من الإشارة الى أن عصر شجر الدر يعتبر امتدادا لعصر الايوبيين الذي يمثل ثورة الفكر السني واحياء التراث العربي الاسلامي .

ومن المؤكد ان الممالك قد شجعوا العلماء والادباء بما فيهم الشعراء حيث درجت العادة منذ ان تشكلت الشخصية القومية للاقليم المصري في القرون الوسطى على أثر استقلال الطولونيين والافنديين وظهور الفاطميين ، أن يقوم امراء وملوك تلك الدول بتشجيع العلم والعلماء ، ودرج الايوبيون على خطاهم واذا كان صلاح الدين وهو مؤسس ملك آل أيوب ينفر من العلوم الفلسفية ويضطهد أصحابها (١) ، الا أنه كان يقرب أهل العلوم الدينية والادبية .

ورغم أن الصالح نجم الدين أيوب لم يكن له ميل للعلم ومطالعة الكتب (٢) ، حيث كان سلطانا منصرفا للعبة الحكم يتبنى هو الآخر لنفسه مدرسة . ولقد استخدم الصالح الشاعرين : جمال الدين بن مطروح والبيها زهير اللذين أوكل اليهما أعمالا رسمية (٣) .

وقد كان للشعر في عصر شجر الدر مكانة بارزة ، فقد ظهر في هذا العصر ثلاثة من الشعراء الكبار كانوا بما أبدعوه من شعراء اضافة جليظة لديوان الشعر العربي وهؤلاء هم :

(١) ابن تفرى بردي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٥٤ .

(٣) ابن تفرى بردي ، المصدر السابق ج ٦ ، ص ٢٢٧ .

عمر بن الفارض ، الذي مات في عهد الكامل والبنها ، زهير الذي أدرك ولاية المنصور بن المعز آييك والصاحب بن مطروح الذي مات في أول عهد المعز آييك ، ولقد اشتهر ابن الفارض بأشعاره الغزلية ذات المسحة الصوفية حتى أن المؤرخ ابن تفرى بردى قد نقلها كلها في تاريخه النجوم الزاهرة نقتطف منها (١)

سائق الاطعمان يطوى البيد طي	منعما ، عرج على كيسان طي *
وبذات الشيخ عني ان هـرر	ت يحي من عريب الجزع حسي
وتططف ، واجر ذكرى عندهم	علمهم ان ينظروا عطف السبي
قل تركت الصب فيكم شبحا	ماله ما يراه الشرق ، في
صار وصف الضر ذاتيا له	عن عنا ، والكلام الحي لبي
كهلال الشوك لولا انـه	ان عيني ، عينه ، لم تتـأى
بين اهليه غريبا نازحا	وعلى الاوطان لم يعطفه لبي
جامحا ، ان سيم صبرا عنكم	وعليكم احنا لم يتـأى
في هواكم ، رمضان عمره	ينقصي ما بين احيا ، وطـي
عين حسادى عليها لي كوت	لا تعداها اليكم الكي كـي
هل سمعتم أو رأيتم أسدا	صاده لحظ مهابة ، أو ظـي
ذهب العمر ضياعا وانقضى	باطلا ، ان لم أخذ منكم بشي
غير ما أوليت من عقدي ، ولا	عترة البعوث (٢) حقا من قصي

أما ابن مطروح مصرى المولد والنشأ المتوفى سنة ٦٤٩ هـ فقد كان شعره يؤرخ لأحداث عصره فهو الذى قال مخاطبا الناصر صاحب الكرك لما استرجع بيت المقدس من الاحتلال الصليبي الثاني :

المسجد الاقصى له عادة	سارت فصارت مثلا سائرا
اذا غدا للكفر مستوطنا	ان يبعث الله له ناصرا
فناصر (*) طهره أولا	وناصر طهره آخره (٣)

- (١) ابن تفرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٨٨ ، ديوان ابن الفارض ، تحقيق فوزى عطوى ، ص ١٩٠ .
- (*) طي : تلال الرمال التي تقيم فيها قبيلة طي وهي قبيلة اشتهر فيها حاتم طي .
- (٢) عترة الموت : رهط النبي محمد صلى الله عليه وسلم .
- (*) ناصر : هو السلطان صلاح الدين الايوبي .
- (٣) ابن تفرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢٧ .

ولا بن مطروح غزل كثير ومنه قوله :

هي راحة فجدوا عين الوادي وذروا السيوف تفر في الأغمار
وحذار من لحظات أعين عينها فلكم صرعن بها من الأســامار (١)

وابن مطروح هذا هو صاحب القصيدة الشهيرة التي قيلت على أثر وقوع لويس

التاسع في أسر الماليك بعد معركة المنصورة وهي :

قل للفرنسيين اذا جئتـه مقال نصيح من قـؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى من قتل عباد يسوع (٢) المسيح
أتيت مصرا تبتغي ملكها تحسب أن الامريا هابل ريح
فساقك الحين الى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل اصحابك اودعتهم بحسن تدبيرك بطن الصريح
سبعون ألفا لا يرى منهم الا قتيل أو أسير (٣) جريح
الهك الله التي مثلها لعل عيسى منكم يستريح
ان يكن البابا راضيا قرب غشى قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنا انـه انصح من شق لكم اوسطيح
وقل لهم ان ازمعوا عودة لاخذ ثار أولفعل قبـيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والهاوشي صبيح

ولا يعطي صورة حقيقية لروح العصر ، الذي نسبت فيه شجر الدر غير شعـر

البيها زهير ، فهذا الشعر طافح بقيم عصره الدينية والفكرية والاحتماعية ولقد كان
البيها شاعرا كبيرا ، وهو خير من يعبر عن الروح المصرية في العصر الايوبي (٤) وتظهر
مصر في شعره مكتظة الشخصية القومية ذات بعد حفرافي محدود ، أشار له البيها في
احدى قصائده بقوله :

سقى واديا بين العريش وريقة من الغيث هطال الشآبيب هتان
وحيا النسيم الرطب غنى اذا سرى هنالك اوطانا اذا قيل اوطان

ويعطي شعر البيها اشارات لتوخي مذهب السهولة في الشعر ، حيث يـسر
الاسلوب السهل فيقترب من السهل الممتنع ، ولا أروع من هذه الابيات تشير الى

(١) ابن تغري بردي ، الصدر نفسه ، ص ٢٨ .

(٢) المقرئ ، الصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(٣) ابوالفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ص ١٢٩ .

(٤) ابن تغري بردي ، الصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٧ .

السهول الحلوة المتعة :

من اليوم تعارفنا	ونطأوى ما جرى منا
ولا كان ولا صار	ولا قلتم ولا قلنا
وان كان ولا بعد	من العتب فيا الحسنى (١)
فقد قيل لنا عنكم	كما قيل لكم عنا
كفى ما كان من هجر	وقد ذقتم وقد ذقنا
وما أحسن ان نرجع	للوصل كما كنا

ومن مدرسة البها، ابو الحسن الجزار (٦٠١ - ٦٧٢ هـ) ومن قوله في الطعام :

سقى الله اكناف الكنافة بالقطر	وجاء عليها سكر دائم النذر
وتبا لا وقات المخلل انها	تمريلا نفع وتحسب من عمري
اهيم غراما كلما ذكر الحمى	وليس الحمى الا القطايف بالقطر (٢)

واذا ذهبنا نقتبع أثر الشعر والشعراء في هذا العصر فلن نجد مثال الشعراء اللذين أشرنا لهم . ولكن هناك بعض الشعراء من هم في منزلة دون هؤلاء نذكر منهم علي بن قذل المشد (٦٠٢ - ٦٥٦ هـ) وزكي الدين بن أبي الاصبع ت ٦٥٣ الذي كان له اهتمام بالبديع وله كتاب تحرير التبحير في علم البديع (٣) ومنهم يحيى الصرصري ت ٦٥٦ هـ الذي كان له كثير من المدائح النبوية ومنها قوله :

مزار وهنا ونحن بالزورا	في مقام خلا من الرقيبا (٤)
من جيب القلوب طيف خيال	فحلا نوره دجى الظلما

ومن اشهر المؤرخين في هذا العصر ابن قزاز علي ت ٦٥٤ هـ صاحب كتاب مرآة الزمان وقد وصفه ابو المحاسن ، بانه من اجمل الكتب في معناها ، وأنه نقل عنه الكثير .

وللشيخ قطب الدين اليونيني المتوفي بعدة بقرن من الزمان ذيل على المرأة في جزئين (٥) .

ومن قصائده في المديح والعلق ، لما كانوا يفعلون مع سلاطين آل أيوب فلما

(١) ديوان البها، زهير، المصدر نفسه، ص ٣٤٠ .

(٢) ابن اياس، المصدر نفسه، ص ٣٣١ .

(٣) ابن اياس، المصدر السابق، ص ١٩٣ .

(٤) ابن تغري بردى، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٦٦ .

(٥) ابن تغري بردى، ج ٦، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

بوسع المنصور علي بن عز الدين آييك وقف البها زهير كبير شعراء مصر آنذاك مهنتا فسي
احدى المناسبات :

يهنئك الملوك بالعرش والشهر
وينهي الى العلم الشريف بانه
وها انذا ادعوك الله دائما
واامل اني أن أعشرك مرة
واني لا رجو أن جودك شاملني
وانك ان وليتني منك انعمما
تشدد به أزرى وتقوى به يدي
لعل الذي في اول العمر فاتني
ويا ليت اعمار الانام لك الفدا
وبالعيد عيد النحر يا ملك العصر (١)
على قدم الاخلاص في السر والجهر
مع الصلوات الخس والشفع والوتر
ستبقى لك الايام في طيب الذكر
قريبا على قدر اهتمامك لا قدرى
فاني ملي بالدعاء والشكر
تعزبها قدرى تزيد بها وقدرى
تعوضني انت في آخر العمر
وأولهم عمرى وأسبقهم ذكرى

وكذلك فعل سراج الدين الوراق .

وقد لمع في عرش شجر الدر من رجال العلم العزبين عبد السلام ، وكان يلقب
بسلطان العلماء ، وقد وصفه جمال الدين الاسنوى في طبقات الشافعية بانه كان شيخا
ورعا زاهدا ، وله تصانيف وتلاميذ يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وتقدر فضله ، ولي
خطابة دمشق فحط على سلطانها في الخطابة لا مرجى منه وانتقل الى الكرك ، ثم التحق
بالصالح في مصر ، وتولى خطابة الجامع العتيق ، ولما ادركته الوفاة في عهد الظاهر
نيسبرس تنفس هذا الصعداء وقال : لم يستقر ملكي الا الساعة ومضى في جنازته (٢) .

وعز الدين هذا كان قد لعب دورا هاما في مسألة ولاية شجر الدر للسلطة في
مصر ، فقد وقف من ذلك موقفا معاديا ، ومنع في مسألة حكمها ، وما ابتلى الله بسبب
المسلمين من ويلات كثيرة (٣) أعجلت الى جانب اسباب اخرى في اعتزال شجر الدر
للسلطان .

وقد كان العزبين عبد السلام شديدا على المعاليك لما امتازوا به من جهل وظلم
وطغيان ، وكذلك الامراء الاحرار في عهد الصالح ، فقد افتى بعزل الامير فخر الدين من
الاستمرارية وتصدى لبيع امراء الدولة من المعاليك لما ثبت عنده انهم ليسوا احرارا وأنهم
ما زالوا تحت السرق ولم ينفك من ذلك حتى باعهم ونادى عليهم بالسوق وقبض أثمانهم
وصرفها في مصالح المسلمين .

(١) البها زهير ، ديوان البها زهير ، ص ١٦٦ .

(٢) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٧ .

(٣) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

كان العز حصناً تلجأ اليه الدولة في المهمات كما اعترى الوطن خطراً
لتهديدات من غير المسلمين ، وقد لجأ اليه قطز يطلب منه ان يحض الناس على قتال
التتار فوقف من مسألة تجهيز جيش الحملة موقفاً شجاعاً ، وأفتى بان يجهز هذا الجيش
من اموال عامة الناس بعد ان يستنفذ امراء الدولة ما في خزاناتهم من اموال في التجهيز .

ولعز الدين آثار جلية في تفسير القرآن ، ومجازه والفتاوى الموصلية ، وله
مختصر النهاية والقواعد الصفري ، والكبرى ، وبيان احوال يوم القيامة ، ولقد بلغ من
موضوعية ابن عبد السلام وتواضعه انه كان اذا أفتى بحكم وظهر له أنه خطأ ، أمر بمن
ينادي في الاسواق بابطال تلك الفتوى والاعتراف بالخطأ (١) ، وهذه منزلة كبرى ولقد
استحق من اجلها ان يقول فيه جمال الدين بن الحاجب المالكي ابن عبد السلام افتى
من الامام ابي حامد الغزالي .

وما قيل فيه من الشعر قول ابن الجزار :

سار عبد العزيز في الناس سيرا لم يسره سوى ابن عبد العزيز
عنا حكمه بعدل بسيط شامل للورى ولفظ وجيز (٢)

واذا كان ابن عبد السلام رأس المشتغلين بعلوم تأليف وفتوى ، فقد كان العصر
يزخر بامثاله ، ومن هم بدرجته ومن هؤلاء محي الدين النواوى وشمس الدين محمد بن
عبد الستار الذى كان فريده عصره استاذ الاثمة .

(١) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ .

(٢) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ .

- الحياة الاجتماعية والاقتصادية

كان المجتمع الاسلامي اخلاطاً ، من عناصر وجنسيات متباينة في كل شي * لا يربط بينها رابط ، اذ ليس من سمات الترابط شي * فهم خليط من عرب وترك وفرس وروم وأرمين ومن سلالات اوربية ، وكان لكل منهم تراشه الفكري والاجتماعي والديني ، وكان العنصر التركي أبرزها ثم العنصر الكردي ، وكان الاتراك يجلبون من اسواق النخاسة المنتشرة حول الدول الاسلامية ، وكانوا جميلي الصورة يمتازون بالاستعداد الحربي مما شجع الخلفاء وكبار القادة على اكنار منهم .

ولان عصر شجر الدر يعتبر امتداداً للعصر الذي سبقه وهو عصر بني أيوب فقد كان المجتمع مؤلفاً من السادة ، والحكام ، وهم عسكر المماليك ، ومن يلمع من طبقتهم ، فيتولى الاتاكية ، والحكام النواحي العسكرية والسياسية في الدولة ، وكانت المهام الكبرى في أواخر دولة بني أيوب ، وأوائل دولة المماليك هي نيابة السلطنة (قيادة الجيوش الاتاكية) .

ولم تكن طبقة المماليك في عهد شجر الدر قد مكنت لنفسها من الثروة والغنى ، اذ كانت حديثة العهد بالانظمة بالسلطة ، ولهذا وجدنا أن معظمهم كان يعيش أشبه بالمعسكرات التي أنشأها لهم الصالح نجم الدين أيوب (١) .

ولقد قام إلى جانب رابطة الخشداشية * رابطة أخرى لا تقل عنها احتراماً وتأثيراً ألا وهي رابطة الاستاذية ، والاستاذية في نظر المماليك هي العلاقة التي تربطهم بالسيد الاول الذي رباهم في حماء ، وخصهم بالطعام والشراب والسلام ، ثم أعتقهم وأمرهم .

لقد ارتبط المماليك من بداية سيطرتهم على مصر والشام بنوع من الولاء الاجتماعي لبعضهم البعض ، واطلقوا على تلك الرابطة التي تجمعهم مسا اسم (الخشداشية) *

(١) المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٨٨ .

(*) جمع خشداش ، وهو معرب باللفظ الفارسي . خواجاتاش اي الزميل في الخدمة والخشداشية او النجداشية أو الخوجداشية في اصطلاح عصر المماليك بمصر ، الامراء الذين نشأوا ممالك عند سيد واحد فبنيت بينهم رابطة الزمالة القديمة ويقابلها بالفرنسية (camarades) ، ورد هذا في المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، حاشية صفحة ٣٨٨ - ٣٨٩ .

ولقد وصلت شجر الدر الى السلطنة بفضل من كانت تعبرهم خير حيشها من الممالك . الذين نشأوا وتربوا في كنف زوجها ، وسيدهم الصالح نجم الدين أيوب حتى أن هؤلاء الخشداشية يحولون دون الانتقام منها لما قامت بقتل زوجها المعز آيبك (١) .

لقد أخذ الممالك يستفيدون مما توفر لديهم من ثقافة جندها أيام عزهم في عهد بني أيوب في الحصول على وظائف ادارية سامية ، في القضاء والجباية وكتابة الدواوين (٢) .

أطلق على أبناء تلك الطبقة اسم "الاعيان" وأصبح يندرج تحت هذا الاسم أبناء الاسر التي لعبت دورا "تاريخيا" في الحياة السياسية والعسكرية المصرية فقد نعت المقریزی الأمير شرف الدين يوسف بن أبي الفوارسي بن موسك القيصر (٣) بأنه من الاعيان وكان هذا الامير من الارستقراطية التي كانت من اركان دولة بني أيوب (٤) .

ولقد أخذت هذه الطبقة تتراجع رويدا رويدا من حيث سطوتها وتتسع أيضا مع امتداد دولة الممالك ما انضم اليها من أبناء الممالك الذين ولدوا أحرارا ، وأخذ يطلق عليهم اسم "أبناء الناس" .

كان يلي طبقة "الاعيان" في المجتمع المصري عامة أهل مصر من حرفيين وصناع ، وتجار ، وعاطلين عن العمل يمتحنون الفساد والسرقة ، وقد كان هؤلاء المامة يتفاوتون في مدارج السلم الاجتماعي ، فقد كان التجار في بحبوحة من العيش وكمسان الحرفيون والصناع يأتون بعد هم من حيث الرفاه الاجتماعي ، ولقد اشتهرت نساؤهم بالعصمة والتزام البيوت وعدم الخروج ، وكثيرا ما كانت تتعرض هذه الطبقة لبفسي الممالك ، وعدوانهم مثال ذلك ما قام به أنصار فارس الدين أقطابي من الممالك البحرية - الذين كانوا يأخذون اموال الناس ونسائهم وأولادهم بأيديهم ، فلا يقدر أحد على منعهم ، وكانوا يدخلون الحمامات ، يأخذون النساء منها غضب ، وكثر ضررهم ، هذا وقد انتشرت ظاهرة التصوف ، واستقرت ، واتسع المنتسبون اليها الآن التصوف أصبح ملجأ للبائسين

(١) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٧٧ .

(٢) المقریزی ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٣) المقریزی ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٧ .

(٤) المقریزی ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٨٠ .

والمهزومين ،بالإضافة الى المتدينين ،ولقد تمتع مشايخ الصوفية باحترام كبير ،وكان
الماليك ،والاعيان يخشونهم ،وكان الاعيان يعتبرون الصوفية ملوك الآخرة الذين
يدخلون الجنة قبل الاغنيا ،ولكن ذلك لم يمنع بعض العلماء ،والشعراء من توجيهه
سهام النصر الى منحرف انصار هذه المارقة الصوفية كالبيها زهير القائل : (١)

كم أناس أظهروا الزهد لنا فتجافسوا عن حلال وحرام
ملكوا الاكل وابدوا ورعاً واحتهدوا في صيام وقيام
ثم لما أمكنهم فرصة أكلوا أكل الحزاني في الظلام

وكذلك في الدفاع عن الاتقيا منهم ،كما فعل ايضا البيها زهير ،عندما سمع
انسانا يقدر في مشايخ الصوفية (٢)

أتقدر فيمن شرف الله قدره وما زال مخصوصا به طيب الثنا
لعمرك ما أحسنت فيما فعلته وليس قبيح القول في الناس هينا
دع القوم ان القوم عنك بمنزل وانك عن هذا الحديث لفي غنى
رجال لهم سر مع الله خالص ولا أنت من ذاك القبيل ولا أنا

والحقيقة ان التصوف كان له آثار واسعة من الناحيتين السلبية والايجابية على
الحياة في مصر في عهد بني أيوب والماليك بدولتهم البحرية والبرجية ،فمن الناحية
الايجابية كان كبار المشايخ الصوفية من اشتهروا بالزهد والفضل يلجأ اليهم المظلومون
بفضل ما يتمتعون به من احترام مشوب بالخوف والتقديس من قبل الامراء والحكام ،اما من
الناحية السلبية ،فقد صبغ التصوف القيم والمثل العليا بالزهد والانصراف عن الدنيا
والاستقرار للدار الآخرة ولقد باعدت هذه القيم المنحرفة بين الناس وبين المطالبين
بحقوقهم التي لهم على الحكام ورضخوا للطبقة الحاكمة الضيقة.

كان القضاء مكان يختار من بين العباسيين الذين جا بهم بيمرس الى حصر
بعد سقوط بغداد ،وكان يوجد قاضي واحد في عهد الايوبيين ،ثم اصبحوا أربعة قضاة
في عهد الماليك ،قاضي لكل مذهب ،ويأتي قاضي الشافعية في مقدمتهم ،وكان مرسوم
تولي القضاء يتلى بالجامع .

(١) البيها زهير ،المصدر السابق ،ص ٣٢١ .

(٢) البيها زهير ،المصدر السابق ،ص ٣٤٤ .

كانت القاهرة أعظم مركز للنشاط التجاري في بداية الحكم المملوكي ، فقد خلفت بغداد في نشاطها ، فكانت التجارة تصب فيها من سائر بلاد الشرق والغرب بالإضافة الى ما تركز فيها من الصناعات منذ عهد المماليك والأتراك ، كما كانت الحاصلات الزراعية واخره ، وكانت أرض الصعيد كثيرة المواشي والضأن ، وقد استمرت البلاد في رخاء دائم .

٥ - العمارة زمن الصالح نجم الدين أيوب وشجر الدر

رغبة في استكمال الصورة التي كانت عليها بداية عصر المماليك في مصر فقد أثرت أن أفرد جزاً خاصاً من بحثه. أتناول فيه الحياة الثقافية والحضارية لذلك العهد ، متجاوزاً في ذلك الفترة الزمنية التي تحدد بها موضوع البحث ، حيث لا يتجاوز عهد شجر الدر بضع سنين ، مما لا يجعله يشكل عهداً ثقافياً متميزاً ، وإنما يعد امتداداً للعهد الذي سبقه ، وحلقة وصل بين العهود السابقة واللاحقة به .

ونظراً للعلاقة بين ظاهرة المماليك في مصر ، وبعض صور أنماط الحياة الثقافية ، والحضارية فيها ، فقد كان لهذا اعتبار آخر دفعني لدراسة هذا الموضوع من وجهة نظر تاريخية ، وليس من وجهة نظر أدبية أو هندسية أو أثرية .

ولأن الاعتقاد السائد بأن فترة حكم المماليك تعتبر فترة فوضى واضطرابات داخلية وخارجية ، لذلك لم تشهد تقدماً في ميادين الحياة الأخرى ، بل اقتصرت على النواحي العسكرية والحربية ، فإن الشواهد التاريخية والأثرية تدل على أن هذا الاعتقاد ليس صحيحاً - بناءً على ما سيأتي - ، وإنما يعد امتداداً من هذه الناحية لعصر الأيوبيين .

وعلى الرغم مما كان عليه عصر الأيوبيين من اضطرابات داخلية وخارجية إلا أنه كان حافلاً بالإنشاء ، فقد بنيت فيه المدارس ، والمستشفيات ، ونسقت الحدائق ، إلى جانب المنشآت الحربية التي من أبرزها قلعة الجبل ، والتي بنيت في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي لتكون مقراً لحكومته ، ومعقلاً لجيشه الكبير ، وحصناً يمكنه من الإشراف على حاضرة دولته ، ويحميه من الثورات الداخلية ، ونقطة دفاعية يصد منها غارات المغيرين على مصر من الفرنجة (١) .

ولم تتوقف حركة البناء والإنشاءات في العهود التي تلت عهد صلاح الدين الأيوبي ، وإنما بقيت مستمرة ، وإنسجاماً مع موضوع البحث ، فقد حددت هذا الجزء بالفترة الممتدة بين عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وإلى فترة عز الدين آييك .
الروضة :-

ولعل من أبرز المظاهر العمرانية التي ظهرت في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة الروضة التي أمر ببنائها لتكون مقراً للمماليك بعد أن أحسن بتظلم

(١) Stanley, Lane-poole, A History of Egypt in The Middle Age
P. 109.

الناس منهم وسخطهم عليهم ، ونظرا لهذه العلاقة بين القلعة والماليك فقد آثرت الحديث عن الروضة والقلعة بشي* من التفصيل .

ورد في بدائع الزهور في وقائع الدهور ، وصفا كاملا عن الروضة ان يقول :

" وفيها - يعني الروضة - يقول ابن أبي حلوة :

حول الجزيرة من مصر قد اجتمعت سبع بها المرء مها عاش ولهـان
بر وحر ونجار وسهطـة وروضة وساتين ورمـان

قال ابن المتوحي : كان اسم الروضة قديما " جزيرة مصر " فلما كان زمن الأفضل بن أمير الجيوش فسميت الروضة ، ولم يكن في الديار المصرية بقعة تشاكلها لما فيها من البساتين والمناظر ، وكانت هذه الجزيرة قبل ظهور الاسلام متنزها لملوك القبط . فلما كان دولة الملك الصالح نجم الدين بن أيوب قوى عزمه على أن يجعل هناك قلعة ويسكن فيها ماليكه ، ويسميهـم " البحرية " فشرع في بنائها سنة ثمان وثلاثين وستمائة . وكان بها أشجار ونخيل وجميع فـقـطـع منها ألف نخلة وأربعماية جميزة كانوا يتفرجون الناس تحت ظلها ، وكان بها المناظر الحسنة ، فهدم الملك الصالح ذلك جميعه ، وأدخله في ميدان هذه القلعة ، وعمل لهذه القلعة ستين برجا محيطة بها وعمل بها جامعـا بخطـبة ، ونقل الى هذه القلعة العمـد الصوان من برسا ، أخميم ، ولما كمل بناء هذه القلعة ، اشحنها بالأسلحة والالات الحربية ، وأدخـر فيها الفـلال خشية من محاصرة الفرنج ، فأنهم كانوا عزموا على أخذ الديار المصرية .

ويستمر ابن اياس في ذكر صفات الروضة فيقول : قال الامير موسى بن يغمور والي القاهرة : أمر الملك الصالح بهدم مسجد كان بالروضة ، رضى مكانه قاعة مطالعة على البحر برسمه ، فلما انتهى العمل منها ، جاءت الاخبار بان الفرنج طـرـقوا شـر دميـاط فخرج اليهم ، وهو غليل ، فمات هناك ، وجاءوا به في مركب تحت الليل ودفنوه في تلك القاعة ، التي هدم المسجد بسببها ، ولم يدخل تلك القاعة وهو في قيد الحياة فدفن بها مرة ، ثم نقل الى مدرسته التي تجاه المراغة ، فدفن بها .

وكان بالروضة ، فيما بين الروضة والجزيرة ، جسر من خشب يمر عليه الناس والدواب وكان من بر مصر الى الروضة جسرا آخر من خشب ، وكان هذان الجسران ، من مراكب مصاطة بعضها ببعض ، وهي موشقة بالتراب وكان عرض هذا الجسر ثلاث قصبات ، فكان الامراء اذا قصد أحد منهم يعدي الى قلعة الروضة ينزلون عن خيولهم ، ويمشون على هذا الجسر ، الى أن يطلعو الى القلعة ، ولا يمكن أحد من العبور على هذا الجسر وهو راكب ، وسـوى السلطان فقط ، وكان مبدأ هذا الجسر من عند المدرسة الخرويسية .

وكان بالروضة قصر يسمى اليهودج ، بناء الخليفة الأمازيغي المسمى بالله ، لأجل
محبيته البدوية الهوارية ، التي هويها وشغف بها ، وكان من غرائب الوجود ، فهدمه
الملك الصالح لما بنى هذه القلعة وكانت هذه القلعة من محاسن الزمان ، وفيها يقسول
ابن قادنوس :

انظر لحسن القلعة الغراء ان تحاسنها مثل النجوم تلالاً
ووافي إليها الماء من بعد بعده كما زار شغوفاً يروم وصلاً
فعانقها من فرط شوق لحسنها ومد يميناً نحوها وشملاً

ولم تزل قلعة الروضة عامرة على ما ذكرناه حتى كانت دولة المعز آيبك التركماني
فهدم منها حانياً ، وعمر بها مدرسته التي في رحبة الحنا ، فأخذ منها أعمدة رخام ،
وشبابيك حديد وأخشاب وغير ذلك .

فلما كانت دولة الملك الظاهر بيبرس البندقداري أمر بإصلاح ما فسد منها ،
وعمرها كما كانت ، وفرق أبراجها على الأبرار .

فلما كانت دولة المنصور قلاوون وشرع في بناء أبيمارستاف ، نقل من قلعة
الروضة ما يحتاج إليه من أعمدة وأعقاب ، وغير ذلك .

فلما كانت دولة ابن الملك الناصر محمد أخذ ما بقي منها من أعمدة ورخام وغير
ذلك ، وبنى به الجامع الجديد المطال على البحر ، فجميع الأعمدة التي في الإيوان
بالقلعة ، والأعمدة التي في الجامع الحديد من قلعة الروضة .

فمن يومئذ دثرت معالم القلعة وخربت ، وكان ما بقي من معالمها عقد بني على
شاطئ النيل تسميه العامة " القوس " ، وكان ما يلي الجانب الغربي تنتزه فيه الناس ،
وكان باقياً إلى دولة الملك الظاهر جقمق ، ثم هدم وفيه يقول النواحي :

حصر قالت د شقق لا تفتخر قط باسمها
لورأت قوس روضتي منه راحت بسهمها

وبقي من آثار هذه القلعة أبراج كثيرة فبنى عليها الناس الدور الجميلة المطلة
على البحر وهي باقية إلى الآن (١) . انتهى وصف ابن إياس .

(١) ابن إياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٢ .

وفي سنة ٦٣٩ هـ شرع الملك الصالح نجم الدين أيوب في بناء المدرستين اللتين تجاه الصاغة ، وتسمى الصالحيتين النجميتين ، يجتمع فيها المذاهب الأربعة وفيها قال السراج الوراق : (١)

فشيدها للعلم مدرسة غدا عراق إليها شيق وشام
ولا تذكر يوما نظامية لها فليس تضاهي ذا النظام نظام

ويرد في حاشية الصفحة (٣٤١) في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة عن هاتين المدرستين تعليقا للمحقق يقول فيه : "يريد - أي ابن تغري بردي في ذكر المدارس - المدارس الصالحية التي أنشأها الملك الصالح بخط بين القصرين من القاهرة باسم "المدرسة الصالحية" ، كما هو مذكور في اللوحة المثبتة فوق الباب العمومي لهذه المدارس بأسفل المئذنة ، وقد ذكرها المقريزي في خطبه (ج ٢ ، ص ٢٧٤) ، لهذا الاسم ، وذكر أن موضعها كان من جملة القصر الكبير الشرقي ، ودخل فيها باب الزهومة أحد أبواب القصر ومكانه مدرسة الحنابلة ، ثم قال : وبني الصالح مدرستين وضع أساسهما في سنة ٦٤٠ هـ وتمت عمارتهما في سنة ٦٤١ هـ ، ومن البحث تبين لي أن هذه المدرسة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن (٦٠٠٠ متر مربع) وكانت تتكون من قسمين : أحدهما على يمين الداخل من الباب العمومي والثاني على يساره ، وهما ما عبر عنه المقريزي باسم مدرستين ، وكان بكل مدرسة أيوانان ويتوسط القسمين صحن كبير . وقد جعل الملك الصالح هذه المدرسة أربع مدارس للمذاهب الأربعة فجعل الأيوانيين الذين على يمين الداخل من الباب العمومي مدرستين : أحدهما للحنابلة وهي الغربية حيث موقع باب الزهومة ، ويقابلها من الشرق مدرسة الحنفية ، وجعل الأيوانيين الذين على ميدان الداخل مدرستين : أحدهما للمالكية وهي الغربية التي بجوار قبة ترسة الملك الصالح ، ويقابلها من الشرق مدرسة الشافعية ومن ذلك الوقت أصبحت المدرسة الصالحية تعرف "بالمدارس الصالحية" ، وكانت من أجود المدارس بالقاهرة ، والظاهر أن بناء هذه المدارس قد أهمل من زمن بعيد فتعرض للخراب بدليل أنه لما تكلم عليه السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ في كتاب حسن المحاضرة قال : " أن هذه المدارس قد تقادم عليها العهد فرثت " ولذلك فإن حالها اليوم مما يؤسف له ، إذ لم يبق

(١) ابن أياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

قبلة شجر الدر :

لا يعرف بالتحديد تاريخ بناء هذه القبلة ، والمعروف أنه يمتد داخلها إزار من نقش كتابي ذكر فيه اسم شجر الدر صاحبها بلقب (عصمة الدنيا والدين) وأم الملك المنصور خليل ، وقد حلل فان بيروشم هذا النص التاريخي ، وأكد أنه نقش في المدة التي مرت بين موت الملك المعظم توران شاه في ٢٩ ربيع الثاني من السنة نفسها (٣١ يوليو) (١) .

وضريح شجر الدر شبيه من حيث تخطيطه بضريح يحيى الشبيه الفاطمي وضريح الخلفاء العباسيين ، ولكنه يمتاز من حيث زخرفته بأن رأس محرابه مكسوب زخارف من الفسيفساء الذهبية (لوحة رقم ١٥) .

وجدران ضريح شجر الدر أخلاص لمربع تعلوه قبة ترتكز في كل من الأركان الأربعة على طابقين من المقرنصات ، يتكون الطابق الأول منهما من ثلاث طاقات تعلوها في الطابق الثاني ثلاث آخر ، وقد فتحت فيما بين المجموعات الأربع من المقرنصات ، مجموعات من النوافذ ، في كل منها ثلاث ، نافذتان في الطابق الأول ونافذة في الطابق الثاني كما أنه فتح في رقبة القبلة فوق المقرنصات نافذة واحدة في كل ركن ونافذة فوق كل مجموعة من النوافذ السفلى (٢) .

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

٦ - نهاية الطك " المعز " عز الدين آبيك

كانت نهاية الطك المعز عز الدين آبيك نتيجة للخلافات التي وقعت بينه وبين زوجته شجر الدر ، بعدما قضى عز الدين في السلطة حوالي ست سنوات منذ سنة ٦٤٨ هـ ولغاية ٦٥٤ هـ .

ويرجع سبب الخلاف بين عز الدين وشجر الدر الى كونها قد تغيرت عليه ، وتغير عليها بسبب أنها كانت دائمة المن عليه ، لكونها هي التي أوصلته الى السلطة بعد تنازلها عنها ، وبهذا المعنى كانت تقول له دائما : " لولا أنا ما وصلت أنت للسلطنة " (١) .

ويقول ابن تغري بردي : " وكانت مستولية على آبيك في جميع أحواله ليس له معها كلام " (٢) . حتى أنها فرضت عليه أن يطلق زوجته الا ولى أم ولده الأمير علي (٣) .

ولقد ساعد على تعاظم الخلاف بينهما أن شجر الدر سمعت من بعض العماليك أن عز الدين بعث يخطب ابنة بدر الدين لؤلؤ - صاحب الموصل - ويورد المقرئ رواية تؤكد ذلك ، وهي " ان المعز قبض على عدد من البحريّة وسيرهم ليعتقلوا بقلعة الجبل ، وفيهم أيدكيين الصالحي ، فلما وصلوا تحت الشباك الذي تحلّس فيه شجر الدر ، علم أيدكيين انها هناك ، فخدم برأسه - أي مال برأسه احتراماً - وقال بالتركي ، " المملوك أيدكيين بشمقدار . والله يا خوند ما علمنا ذنبا يوجب سركنا الا أنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ، ما هان علينا لأجلك ، فانا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم ، فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين " . فأومات شجر الدر اليه بمنديل ، يعني : " قد سمعت كلامك " ، فلما نزلوا بهم الى الجب ، قال أيدكيين : " ان كان حبسنا فقد قتلناه " (٤) .

ويؤكد اليونيني على أنه قد ترددت بين المعز وبدر الدين لؤلؤ الرسائل

- (١) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٣ .
- (٢) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٧٤ .
- (٣) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٣ .
- (٤) المقرئ ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

بشأن خطبة المعز لابنة بدر الدين وأن شجر الدر قد علمت بالامر مما جعلها تعزم على الفتك به (١) .

وبعث شجر الدر بهدية الى الملك الناصر يوسف ، وأعلمته أنها قد عازمت على قتل المعز والتزوج به وتمليكه مصر ، فخشي الناصر أن يكون في هذا خدعة ، فلم يجب على رسالتها بشي* ، وعلم بدر الدين لؤلؤ بهذا الامر فبعث الى المعز يحذره من ذلك (٢) .

وعلى ما يبدو وأنه لما فشلت شجر الدر مع الناصر يوسف ، قامت بالاتصال بصفي الدين ابراهيم بن مرزوق ، وكان مقيما بالديار المصرية وكان وجيها ومعروفا لدى الملوك ، واستشارته بعزمها على قتل عز الدين ووعده أن يكون الوزير الحاكم في الدولة ان وافق على ذلك ، ولكنه رفض وأنكر عليها ذلك ونهاها عنه ، ولكنها لم تصغ اليه ولم توجه الى طلبة . وطالبت ملوكها الطواشي محسن الجوجرى الصالحى وعرفته ما عازمت عليه ووعده الوعد الجميل ان قتله ، وأغرت بذلك عددا من المماليك الصالحة واتفقت معهم عليه ، وفي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الاول سنة ٦٥٥ هـ ، دخل المعز القلعة بعد أن كان قد لعب بالكرة ، ودخل الحمام ليغتسل فيه ، فلما خلص ثيابه وثب عليه سنجر ملوك الجوجرى فرموه الى الارض وخنقوه ، بعد ذلك أرسلت شجر الدر في طلب صفي الدين ابراهيم بن مرزوق على لسان الملك المعز ، فحضر وأدخل القلعة من باب سرى فتح له ، ورأى شجر الدر حالسة والملك المعز بسمن يديها ميتا ، فأخبرته بما حصل واستشارته فيما تفعل ، فقال : " ما أعرف ما أقول وقد وقعت في أمر عظيم مالك منه مخلص " (٣) .

وعلى ما يظهر من الروايات فان شجر الدر قد وقعت في حيرة من أمرها ، مما دفعها الى الاتصال بالامير جمال الدين آيدغدلي العزيزي وكان معتقلا ، وأخبرته بالامر ، وطالبت منه أن يتولى السلطنة ، فلم يسر على ذلك (٤) . ولما فشلت فسي اقناعه بعثت باصبع المعز وخاتمه الى الامير عز الدين آيبك الحلبي الكبير . وقالت له : " قم بالامر " ولكنه لم يجسر هو الآخر على ذلك (٥) .

(١) اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٥ .

(٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٢ .

(٣) اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٥) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٣ .

وفي يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول من نفس العام ، أي بعد يوم واحد من مقتله ، ركب الـمراء والاكابر الى القلعة على عادتهم ، وليس عندهم خبر ما جرى وتحيرت شجر الدر فيما تفعل ، فأرسلت الى الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المعز لتخبره أن والده نزل الى البحر لصلاح الشواني* التي تجهزت للسفر الى دماط ، وقصدت من ذلك أن تخفف من عدد الـمراء الواقفين على الباب ، بعد أن يسمعوها بأن المعز ليس موجوداً في القلعة (١) .

ولما ارتفع النهار شاع خبر مقتل المعز ، واضطربت الناس واختلفت الاشاعات ، وركب العسكر الى القلعة ، ودخلها ممالك المعز ، وقبضوا على الخدام والحريم وعاقبوهم ، فأقروا بما جرى ، عندها حاولوا القبض على شجر الدر وقتلها ، لولا أن حماها الممالك الصالحة ، ونقلوها الى البرج الأحمر في القلعة (٢) .

وبعد أن قام الـمراء الممالك بفصل الملك المعز ، ودفعه بالقرافة الصغرى ، اجتمعوا وأقروا بتليك ابنه الملك المنصور نور الدين علي وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة ، ونودي في البلد بشماره وتفرقت الـمراء الصالحة الى دورهم ، ولكنه في اليوم التالي حصلت اضطرابات وفوضى في المدينة وركب العسكر الى القلعة ، وأتفقوا على تنصيب الأمير علم الدين سنجر الحلبي المعروف بالمشد أتابكا للملك المنصور وحلفت الـمراء والعسكر له ، فانتظمت الامور وهدأت الأحوال (٣) .

وكانت مدة سلطنة الملك المعز سبع سنين الآ ثلاثة وثلاثين يوماً ، وعمره نحو ستين سنة (٤) .

ولما مات المعز رثاه سراج الدين الوراق بقصيدة أولها : (٥)

نقيم عليه مأتما بعد مأتم	ونسفح دمعاً دون سفح المقدام
ولو أننا نيكى على قدر فقد	لدنا عليه تتبع الدمع باليد
وسل طرفي ينبيك عني أنسني	دعوت الكرى من بعده بالمحرم

* الشواني : السفن

- | | |
|-----|--|
| (١) | اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٢ . |
| (٢) | المقریزی ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٣ . |
| (٣) | اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧ . الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢٤٧ . |
| (٤) | المقریزی ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٤ . |
| (٥) | ابن تغرى بردی ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٩ . |

٧ - مقتل شجر الدر :

لم يكن الملك المنصور علي بن المعز آيبك يتولى السلطة حتى قام عدد من مالكي أبيه بالقبض على شجر الدر ، ونقلها وتسليمها الى والده الملك المنصور لكي تتولى قتلها بنفسها ، ومن شدة حنقها وغضبها عليها أمرت جواربها أن يقتلنها بالقباقيب والنعال ، ففرضنها حتى ماتت وذلك في سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧ م (١) .

ولما كانت شجر الدر قد تيقنت أنها مقتولة ، جمعت جواهرها وسحققتها في الهاون لئلا يأخذها الملك المنصور ابن الملك المعز ، فقد كانت تذكره وتكره أمه (٢) .

وقد بلغ من شدة غضب والده المنصور على شجر الدر أنها لما ماتت سحبت من رجلها وألقيت في الخندق الذي وراء القلعة ، وبقيت مرمية هناك ثلاثة أيام ، ليس عليها من اللباس غير سروال وقميص (٣) . حتى قام أحد العامة بنقلها ودفنها في المكان الذي أعدته لنفسها بالقرب من قلعة السيدة نفيسة (٤) . وربما اختارت شجر الدر هذا المكان لما للسيدة نفيسة من مكانة عظيمة في نفوس أبناء مصر من المسلمين ، فأرادت ان تجاورها في العظمة والمكانة .

ومثلما كانت نهاية شجر الدر فقد كانت نهاية مالكيها ، وخاصة أولئك الخدام الذين اتفقت معهم على قتل المعز ، فمنهم من قتل ، ومنهم من صلب على باب القلعة حتى مات ، ومنهم من هرب الى الديار الشامية (٥) .

-
- (١) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٤ .
 - (٢) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٨ .
 - (٣) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٤ .
 - (٤) اليونسي ، المصدر السابق ، ص ٦٢ .
 - (٥) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٥ .

الخاتمة

لقد كانت مصر والشام تدار من قبل بواسطة أمراء وسلاطين أحرار من البيت الأيوبي ، وكانت قبل ذلك تداران من قبل دولتي الفاطميين والسلاجقة الأتراك الزنكيين .

وقد كان المالِك زمن هذه الدول التي حكمت مصر والشام يتبوأون المنازل الرفيعة في الإدارة والجيش ، ولكنهم كانوا يقفون حيث لا ينبغي لهم التجاوز ، فلا يطعمون ، ولا يفكرون في المناصب السلطانية الرفيعة لأنهم يعرفون أن من سبه السرق لا ينبغي له تجاوز مراكز القيادة في الجيش دون القيادة العليا ، حتى أتابكية المسكر لم يفكروا بها ، وما يؤكد لنا هذا الرأي أن الأتابكية* في عهد الصالح كانت للامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، ولم يشغلها في حياته أحد من ماليكه ، ولكنهم كانوا مقاتلين أشداء في معظم جيوش الدول التي استخدمتهم ، ولقد كان الصالح الأيوبي أول سلطان أعطى ماليكه امتيازات كثيرة ، فخلع عليهم الألقاب ، وجعلهم أمراء عشرات وعشرينات ومئات ، واعتمد عليهم في اقرار حكمه ، وقد نازل الفرنج الذين غزوا مصر بقيادة ملك شديد العراس هو لويس التاسع .

وإذا انطلت أيومية شجر الدر على الناس والماليك معا ، إلا أن كونها امرأة ، لم يجعل الامر بالنسبة لها سهلا ميسورا ، فقد قامت في وجهها معارضة شديدة ، ولقد تزعم هذه الحيلة خليفة بغداد ، وتزعمها نفر من الشيوخ ، وعلى رأسها الشيخ العزيز عبد السلام الذي أفتى بأن ولاية المرأة لشؤون المسلمين تجر عليهم وبالا (١) لقد وجدت شجر الدر لعبة الحكم ممكنة للانثى كما هي ممكنة للرجل . وانها لا تقل شأنًا عن زميلها الرجل في إدارة دفة الحكم .

ووجدت ان الوسائل التي يلجأ اليها الرجل في اقرار سيطرته كـرأس للدولة لا تستطيع المرأة أن تلجأ اليها ، وتقرب بذلك سلطانها ، وعلى الحاكم الذي ينال المرتبة العليا بدون عامل الوراثة لا بد أن يتخلص بالحزم والمزم

* قيادة الجيش

(١) السيوطي ، حسن ، المعاصرة في اخبار مصر والقاهرة ، ص ٣٤ .

وقوة الشخصية .

لقد رفض المجتمع وبصورة حازمة ان يكون على رأس الادارة فيه امرأة مهما أوتيت من الذكاء ، والخبرة ، وحسن الادارة ، فهرع الى رموز السلطة الدينية لمقاومة هذه الظاهرة الجديدة فتزعم الخليفة البندادي هذه الظاهرة ، وكتب الى امراء الممالك يسألهم ان كانت الرجال قد عدت في مصر حتى يقيموا عليهم امرأة (١) ، وعمل العلماء ورجال الدين بدورهم لاسقاط هذه المرأة ، وتزعم العز بن عبد السلام المجتمع الفاضل ، حتى أنه كتب مقامسه في تولي شجر الدر الحكم ، ذكر فيها بماذا أبتلس الله المسلمين بولاية امرأة عليهم ، وشارت القاهرة ، وعمها الاضطراب ، وأغلقت ابواب المدينة خوفا من انتقال عدوى الرفض لغيرهم من المدن والبلاد (٢) .

فقد دعاها ذلك الذكاء للانحناء للعاصفة ، والتخفي عن السدة العليا لسلطان يكون العمود في يدها ، فأوحت الى الممالك أن يختاروا من بينهم شخصية ظنها الجميع سلسلة القيادة ، الا وهي شخصية عز الدين آييك الصالحى ، وقبلت شجر الدر أن تحكم من وراء ذلك الستار سبع سنوات حتى اذا حاول المعز أن يستقل بالأمر من دون شجر الدر دبرت لاغتياله ، ودفعت رأسها سنا لهذا الاغتيال (٣) .

اذا كان الصالح لم يمهل الزمن ليحتفل بالنصر المؤزر الذى حققته ممالكه البحرية على عسكر الفرنج في معركة دياط ، فقد حظيت به زوجته المملوكة في الاصل شجر الدر ، ثم ابنه توران شاه .

وعلى ما يبدو فالممالك وجدتوا أنفسهم أمام شيء لم يتوقعوه من قبل ، ولم يدركوا في خلد هم توقعه . الا وهو السلطة العليا ، لذا ادركوا بثاقب نظرهم ، ومشورة العقل المدبر لطافتهم آنذاك شجر الدر أن عليهم أن يشغلوا هذا المركز الشاغر ، ولكن دون الافتتان على الشرعية الايوبية (٤) ، وهكذا وجدت شجر الدر نفسها أمام

(١) المقريزى ، السلوك لمعرفة دولة الممالك ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٢) ابن اياس ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

(٣) ابن آييك ، كنز الدور ، ج ١ ، ص ٨ ، لوجه ١٢ .

(٤) احمد مختار العبادى ، قيام دولة الممالك ، ص ١٢٠ .

السلطة العليا ، تساق اليها على طبق من ذهب فينتقل الحكم ولأول مرة من أسرة بني أيوب الى عيدهم الأرقاء ، مع الاحتفاظ بأصول اللياقة والاحترام للحقوق الايمية الشرعية ولقد تجلس هذا الالتفاف على الشرعية مع ادعائها بهذا اللقب الذي اتخذته شجر الدر والذي يشير بليلة مقصوده ، فهي (ام خليل) ، أى أم أمير المؤمنين ، وهي زوجة الصالح نجم الدين ، ثم عصمة الدنيا والدين ، وقد ادعت الانتساب الى الخليفة العباسي المستعصم ، رأس السلطة الروحية في ديار الاسلام ، وأصبحت تعرف باسم عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية ، حامية الملك الصالح (١) ، ولقد ضربت السكة بهذا اللقب (٢) .

لقد حاول الدكتور أحمد مختار العبادي أن يقيم ظاهرة شجر الدر بكمات قليلة عندما يقول : الواقع أن سلطة شجر الدر على مصر وليدة للظروف التي احاطت بمصر في ذلك الحين ، ونتيجة لموافقة جماعة من زملائها أو خدشاشيتها الماليك ، وليست نتيجة لموافقة الشعب أو رجال الدين أو الخلافة العباسية هذا فضلا عن أنها كانت مسألة لا يقرها الشرع ولا تستيفها التقاليد الاسلامية (٣) .

واذا ذهبنا مع المستشرق بلوشيه (Blochet) من ان شجر الدر كانت هي الحاكم الفعلي لا مبراطورية الماليك في عهد عز الدين آيبك (٤) واعتبر ما قاله ابن تغري بردي من أن آيبك لم يكن له معها كرامة ، وانها كانت ستولية عليه في جميع احواله (٥) ، فاننا نستطيع اعتبارها شريكة رئيسية للحكم في تلك الفترة التي قضاها المعز آيبك ، وهي سبع سنوات وأشهر .

لقد كان من السهل على الماليك ، وهم قوة عسكرية ، اسكات اصوات خصومهم في ساحات المعارك كالاوييين والاعراب ، ولكن الصعوبة التي واجههوها هي المتمثلة

-
- (١) أحمد مختار العبادي ، قيام دولة الماليك ، ص ١٢٠ .
 - (٢) المقریزی ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .
 - (٣) أحمد مختار العبادي ، نفس المرجع ، ص ١٢٣ .
 - (٤) أحمد مختار ، نفس المرجع ، ص ١٢٣ .
 - (٥) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٧٤ .

في صوت المجتمع الراض ، والمعبر عن رفضه بأسلوب السخرية ، والتعريض ، أو النقد اللاذع ، ولقد وقف العزبين عبد السلام في بداية حكم شجر الدر يؤنب المجتمع لتقبله بحكم هذه المرأة ، أما الناس فقد كانوا يتعرضون لمركب عز الدين آيبك في شوارع القاهرة ، وهم يقولون لا نريد إلا سلطانا رئيسا مولود على الفطرة (١) ، ولا أبلغ في تصوير رفض الناس لحكم هؤلاء الأرقاء من قول البها زهير وهو الشاعر الذي عاش تلك الأحداث ، وتوفي في نهايتها :-

تساوitem لا أكثر الله منكم	فما نيكم والحمد لله محمود
رأيتكم لا ينجح القصد عندكم	ولا المرف معروف ولا الجود موجود
وددت باني ما رأيت وجوهكم	وان طريقا جئتكم فيه مسدود
متى تبعدني عن حدود بلادكم	مطهمة جرد ومهدية قسود
وأصبح لا يجرلي ببالي ذكركم	وتفاح ما بيني وبينك البيسود

ومن هنا لو أننا حاولنا أن نتعرف على الدوافع التي دفعت شجر الدر لحلب السلطان ، فأننا نجد تلك الدوافع شخصية بحتة ، فهي مجرد امرأة ذكية وذات شخصية قوية وضعها الاقدار في ظروف ساقتها الى مثل هذا الطموح ، فلم تتحرك شجر الدر انقياداً الى عقيدة سياسية او فكرية او اتجاه اجتماعي ، فان يكون للمرأة ما يكون للرجل من حقوق ، فشجر الدر كأنتى كانت أمينة لروح العصر الذي نشأت فيه ، فرغم انها في أول عهدا بالسياسة كانت أميرة لدى زوجها الصالح نجم الدين أيوب ، فانها لم تفرض عليه وهو يتمتع الى جانبها بالجوارى والنساء الاخريات .

ولقد تزوج الملك الصالح ، وهي في عصمته بزوجة غيرها ، ولم تذكر المصادر انها أبدت اعتراضا على ذلك . ولكنها لم تكن تخلو من تلك الطبيعة في المرأة الآ وهي الفيرة ، ولقد كلفت تلك الفيرة المعز آيبك حياته عند ما فكر بالزواج على شجر الدر ، فدبرت - مكيدة لقتله .

ان الايام القليلة التي قضتها شجر الدر سلطنة على مصر لم تسجل لنا أى اعتداء

(١) ذكر المقريزى في السلوك ان الصالح كان له جوار ، وانه رزق منهم الاولاد ، ج ١ ، ص ٣٠٩ .

لها على بنات جنسها ، أو ظهور لهن في الحياة العامة ، وكأن شجر الدر لم يختلف ، عن الرجال في اعتبار المرأة على سواح الحياة الاجتماعية والسياسية أمرا لا يجوز أن يكون ، ولذا فقد احتاجت تلك المرأة نفسها بالرجال من الممالك البحرية ، رفاقها في الرق ، وبعض الرجال الاحرار من بقايا اتباع الايوبيين كفخر الدين والشيوخ والطواشي جمال الدين محسن .

ولم يمنع احتجاب المرأة من أن يكون لها دور ما في الحياة السياسية ، وهذا الدور لم يكن ليتحقق في حضور الزوج القوي ، وإنما في حضور ذلك الزوج ، وحضور الولد الضعيف الذي نشأ في كنف المرأة ورضع حنانها ، وشعر لها بحقوق أكبر من تلك التي للزوجة ، وأكثر ما كان يقع عند نساء بني أيوب إذا تولت السلطة ابناؤهن أو أبناء أبنائهن كما وقع ذلك لخليفة خاتون الايوبيّة التي استبدت بحلب طوال حياتها رغم قيام ابن ابنها بالا مراسمها ولم يتسلم لذلك الولد أن يحكم الا بوفاء تلك الخاتون القائدة (١) .

(١) المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١١ .

أيوبية حصن كيفا

الكامل محمد بن العادل الأول

(من أيوبي مصر)

١ - الصالح أيوب

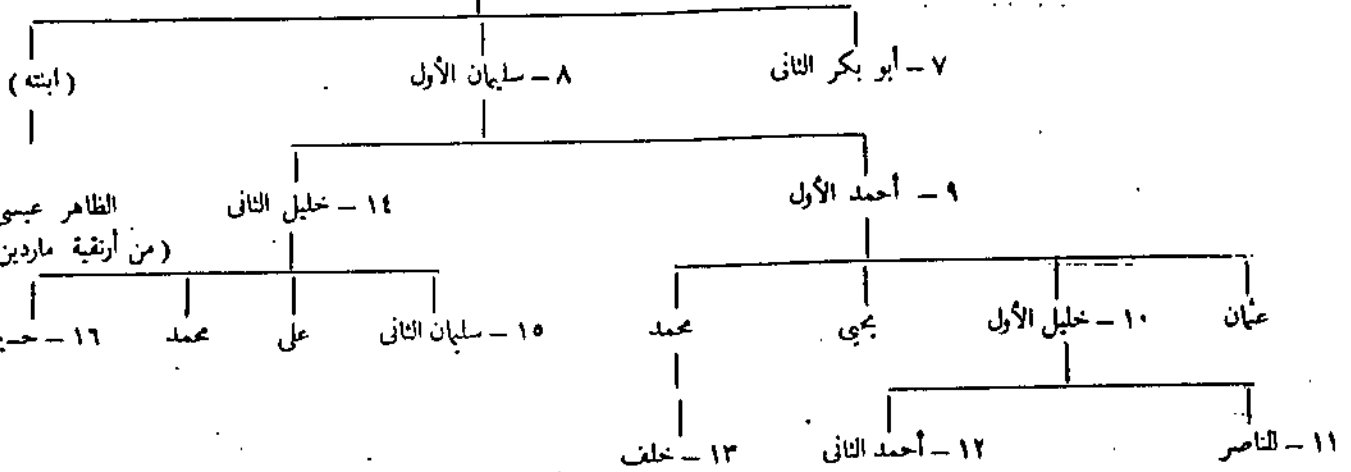
٢ - توران شاه

٣ - عبد الله

٤ - أبو بكر الأول

٥ - محمد

٦ - غازي



صدرت من كتاب :

أحمد السعيد سليمان . تاريخ الدول الإسلامية ومعهم الأسر الحاكمة . الجزء الأول ،

القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

أبوية حصن كيفا

١٢٣٢ م	الصالح نجم الدين أيوب	٨٦٢٩	
١٢٧٣	المعظم توران شاه	٦٣٦	
١٢٥٠	الموحد تقي الدين عبد الله	٦٤٨	
١٢٦٠	(استيلاء الغول)	٦٥٨	
؟	الكامل أبو بكر الأول	؟	
؟	العاقل مجير الدين محمد	؟	
؟	العاقل شهاب الدين غازي	؟	
١٣٧٨ - ؟	الصالح أبو بكر الثاني	٧٨٠ - ؟	
١٣٧٨	العاقل فخر الدين (أو عز الدين) سليمان الأول	٧٨٠	
؟	الأشرف شرف الدين أحمد الأول	؟	
١٤٣٢	الصالح (ومن بعده الكامل) صلاح الدين خليل الأول	٨٣٦	
١٤٥٢	الناصر	٨٥٦	
١٤٥٢	الكامل أحمد الثاني	٨٥٦	
١٤٦١ - ؟	العاقل خلف	٨٦٦ - ؟	
١٤٦١	(استيلاء الآق قوبونية)	٨٦٦	
؟	خليل الثاني	؟	
؟	سليمان الثاني	؟	
؟	خليل الثاني (مرة ثانية)	؟	
؟	حسين	؟	
١٥٢٤ - ؟	سليمان الثاني (مرة ثانية)	٩٣٠ - ؟	

[ثم كان حكم العثمانيين]

صهرت من كتاب :

أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة . الجزء الأول

القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

أيوبية مصر

شاذي بن مروان

نجم الدين أيوب

٤ - العادل الأول

٥ - الكامل محمد

١ - صلاح الدين يوسف

٢ - العزيز عثمان

٣ - المنصور محمد

٦ - العادل الثاني

٧ - الصالح أيوب = ٩ - شجرة الدر

المنصور خليل

٨ - المعظم

نوران شاه

المعتمد يوسف

(من أيوبي اليمن)

صورت من كتاب :

أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة . الجزء الأول .

القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

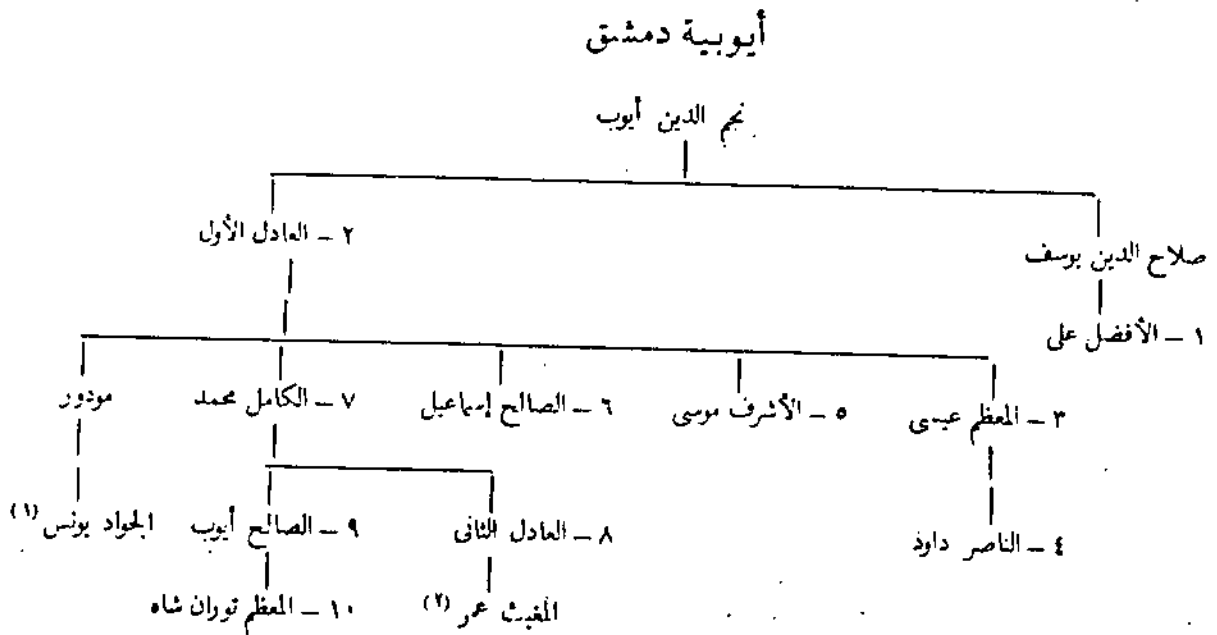
أيوبية مصر

١١٧٤ - ١٢٥٢ م	٥٦٩ - ٦٥٠
١١٦٩	٥٦٤ الناصر صلاح الدين يوسف (زمن الولاية)
١١٧٤	٥٦٩ الناصر صلاح الدين يوسف (زمن الولاية)
١١٩٣	٥٨٩ العزيز عماد الدين عثمان
١١٩٨	٥٩٥ المنصور محمد
١١٩٩	٥٩٦ العادل الأول سيف الدين أبو بكر
١٢١٨	٦١٥ الكامل ناصر الدين محمد
١٢٣٨	٦٣٥ العادل الثاني سيف الدين أبو بكر
١٢٤٠	٦٣٧ الصالح نجم الدين أيوب
١٢٤٩	٦٤٧ المعظم توران شاه
١٢٥٠	٦٤٨ شجرة الدر (زوجة الصالح نجم الدين أيوب) ^(١)
١٢٥٢ - ١٢٥٠	٦٥٠ - ٦٤٨ الأشرف مظفر الدين موسى ^(٢)

صورت من كتاب :

احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة . الجزء الاول .

القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .



(١) حكم الملك الجواد يونس في دمشق نيابة عن العادل الثاني من ٦٢٤ إلى ٦٣٦
(٢) حكم الملك المنصور فتح الدين عمر في الكرك (انظر أيوبية الكرك)

صور من كتاب :

أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة . الجزء الأول

القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

أيوبية دمشق

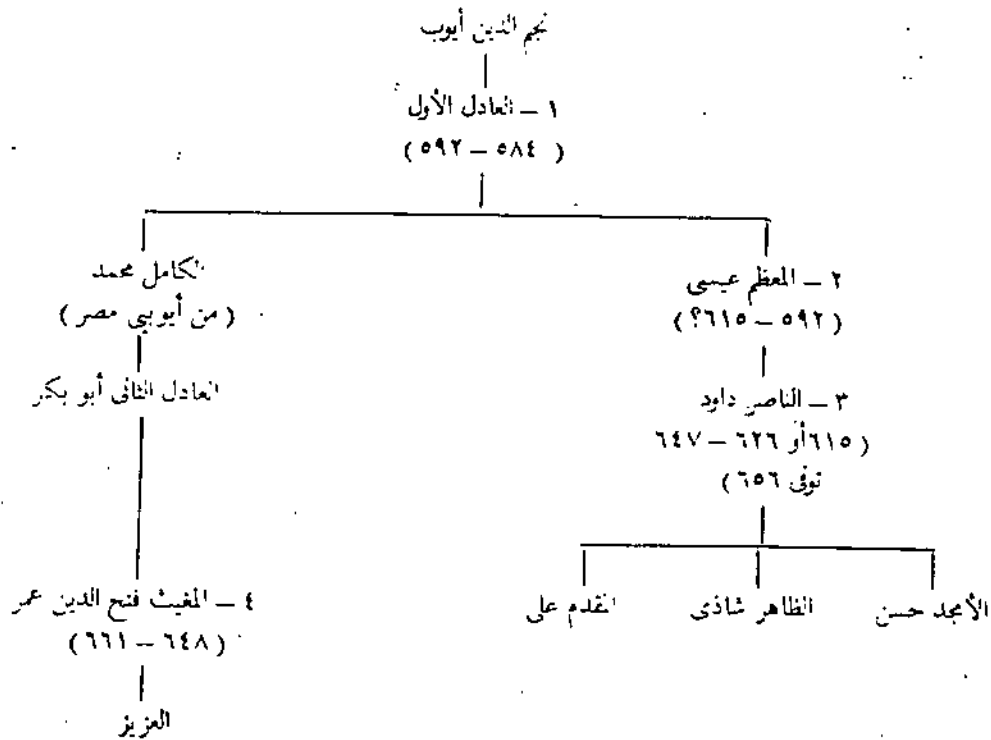
١١٩٣ - ١٢٦٠ م	٥٨٩ - ٦٥٨ هـ
١١٩٣	٥٨٩ الأفضل نور الدين علي
١١٩٧	٥٩٢ العادل الأول سيف الدين أبو بكر
١٢١٨ - ١١٩٩	٥٩٦ - ٦١٥ (اتحد مع مصر)
١٢١٨	٦١٥ المعظم شرف الدين عيسى
١٢٢٧	٦٢٤ الناصر صلاح الدين داود
١٢٢٨	٦٢٦ الأشرف مظفر الدين موسى (من أبوي ميافارقين)
١٢٣٧	٦٣٥ الصالح عماد الدين إسماعيل
١٢٣٧	٦٣٥ الكامل محمد (من أبوي مصر)
١٢٣٨	٦٣٥ العادل الثاني سيف الدين أبو بكر (من أبوي مصر)
١٢٤٠	٦٣٧ الصالح نجم الدين أيوب (من أبوي مصر)
١٢٤٠	٦٣٧ الصالح عماد الدين إسماعيل (مرة ثانية)
١٢٤٥	٦٤٣ الصالح نجم الدين أيوب (مرة ثانية)
١٢٤٩	٦٤٧ المعظم توران شاه (من أبوي مصر)
١٢٥٠ - ١٢٦٠	٦٤٨ - ٦٥٨ الناصر صلاح الدين يوسف (من أبوي حلب)

[ثم كان حكم المماليك]

صورت من كتاب

احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة . الجزء الاول
القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

أيوبيه الكرك

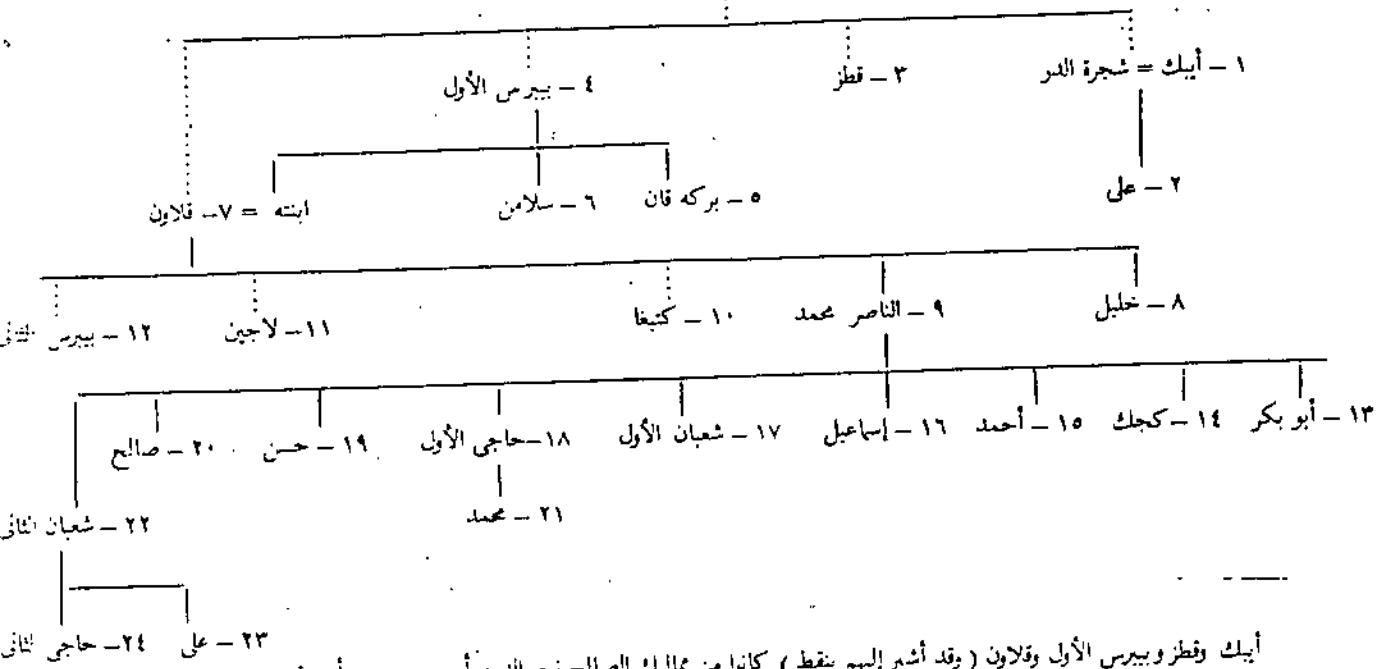


صورت من كتاب

احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة . الجزء الاول .

القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

ممالك الترك الصالح نجم الدين أيوب



أيك وقطر وبيبرس الأول وقلاون (وقد أشير إليهم بنقط) كانوا من ممالك الصالح نجم الدين أيوب . من أبوية مصر . وأما كنيغا ولاجين وبيبرس الثاني وقد أشير إليهم بنقط أيضاً فقد كانوا من ممالك قلاون

صورت من كتاب :

أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الاسر الحاكمة . الجزء الاول .

القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .



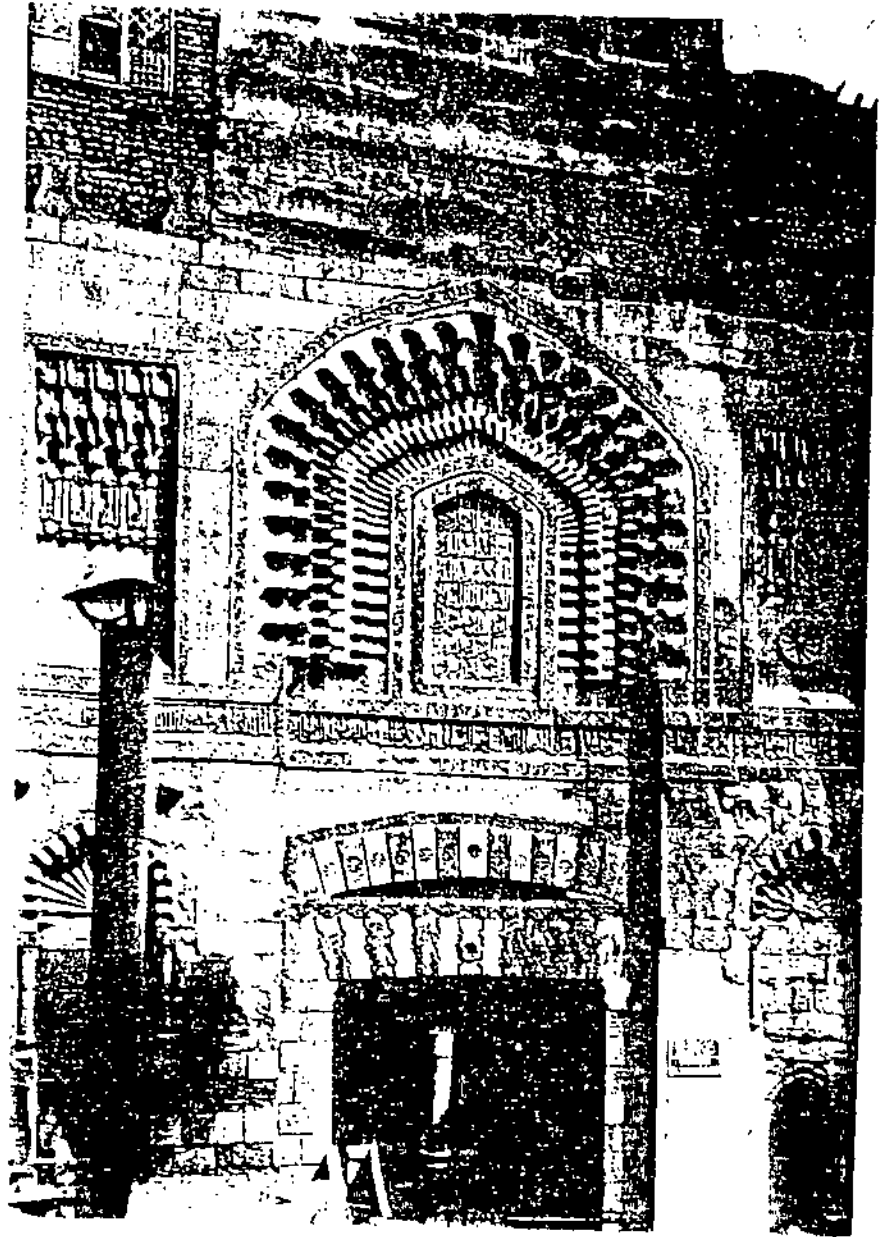
الملك سعود - ١٩٨٢ - الرياض

صورت من كتاب :

فريد محمود شافعي : العمارة الاسلامية : ماضيها وحاضرها ومستقبلها . الرياض . جامعة

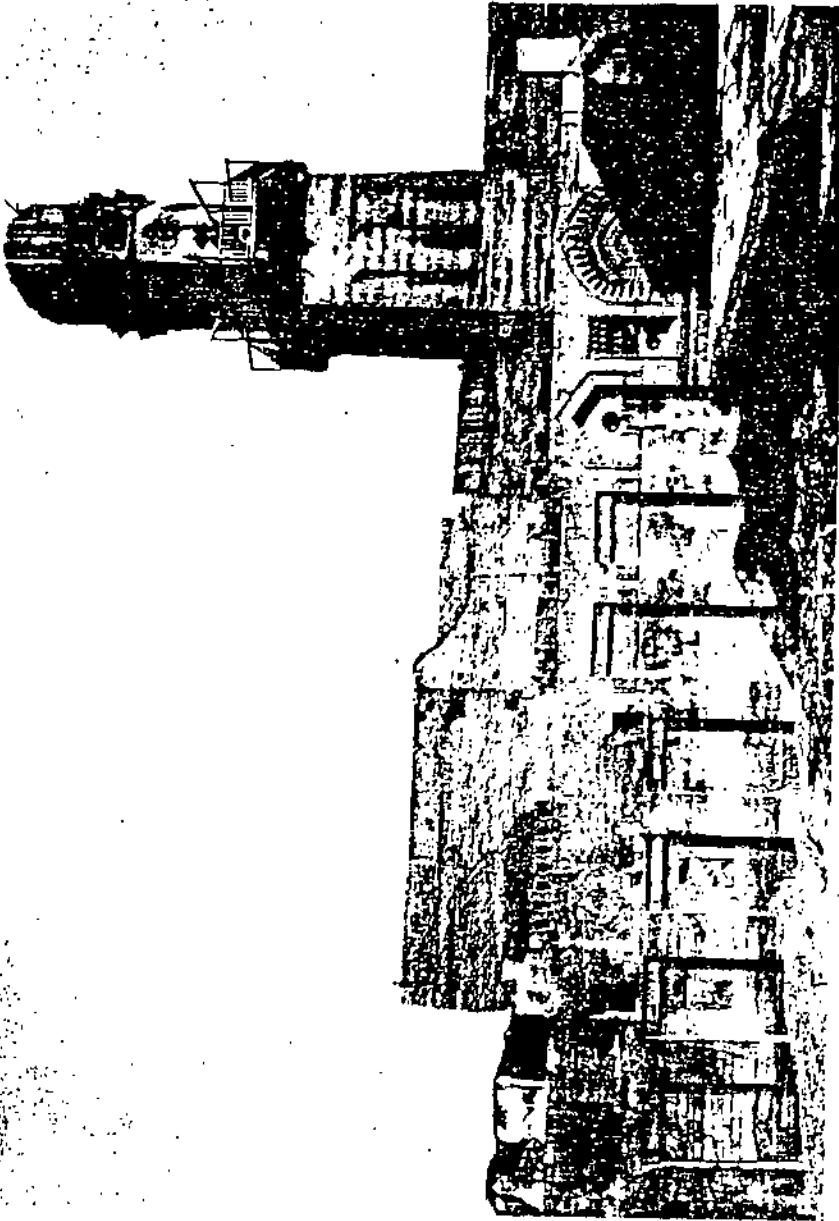
الملك سعود ١٩٨٢ .

نوحة رقم (٢٥)



صورة من كتاب: مدخل الدارين السلطانية وفي نوحه إنشاءها في سنة ٦٤١ (١٢٤٣) .
أحمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الثاني : العصر الايوبي . القاهرة :
دار المعارف ، ١٩٦٩ .

لوحة رقم (٢١)



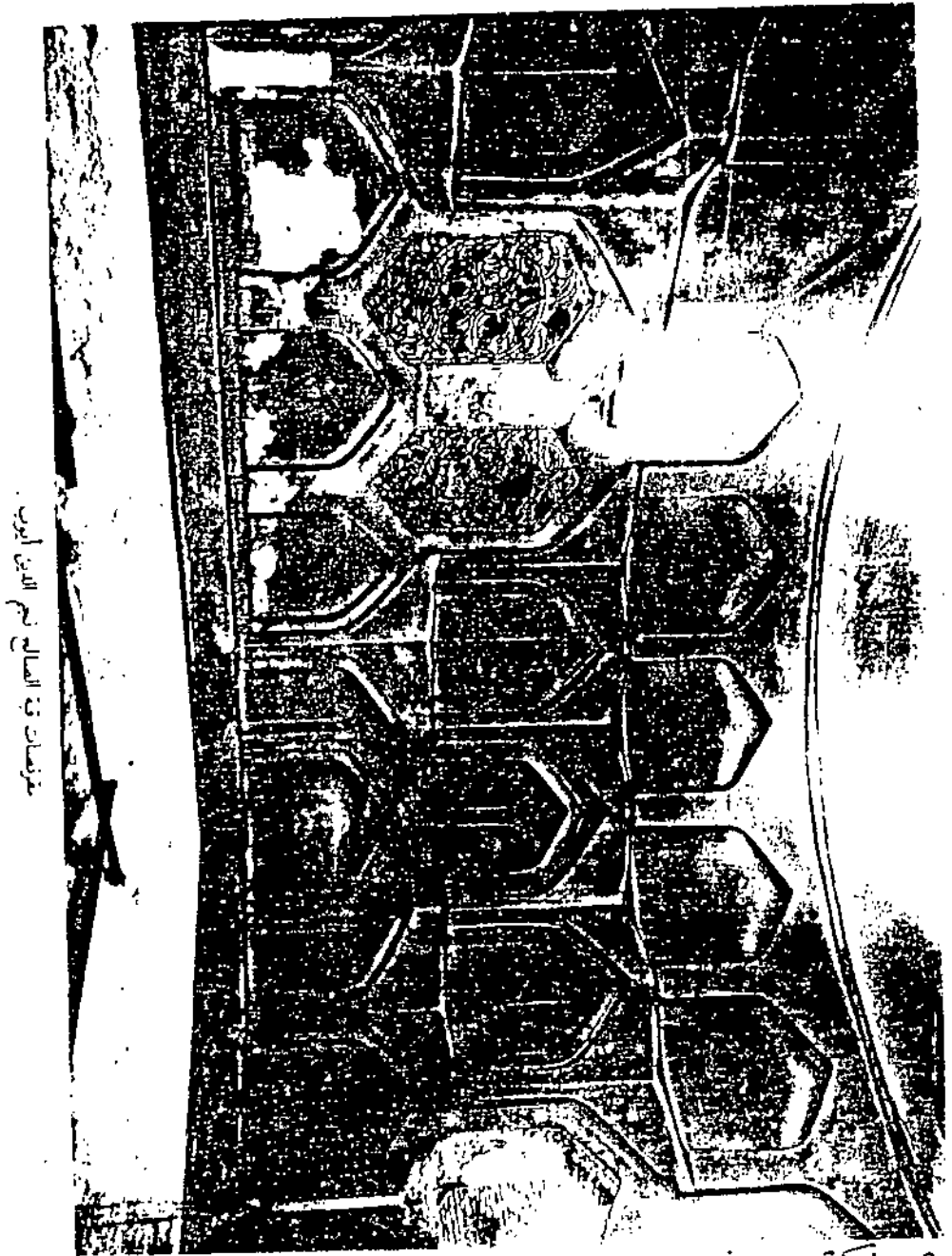
واجهة المدارس الصالحية - القسم الشرقى .

صورت من كتاب

احمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الثانى : العصر الايوبي . القاهرة :

دار المعارف ، ١٩٦٩ .

لوحة رقم (١٩)

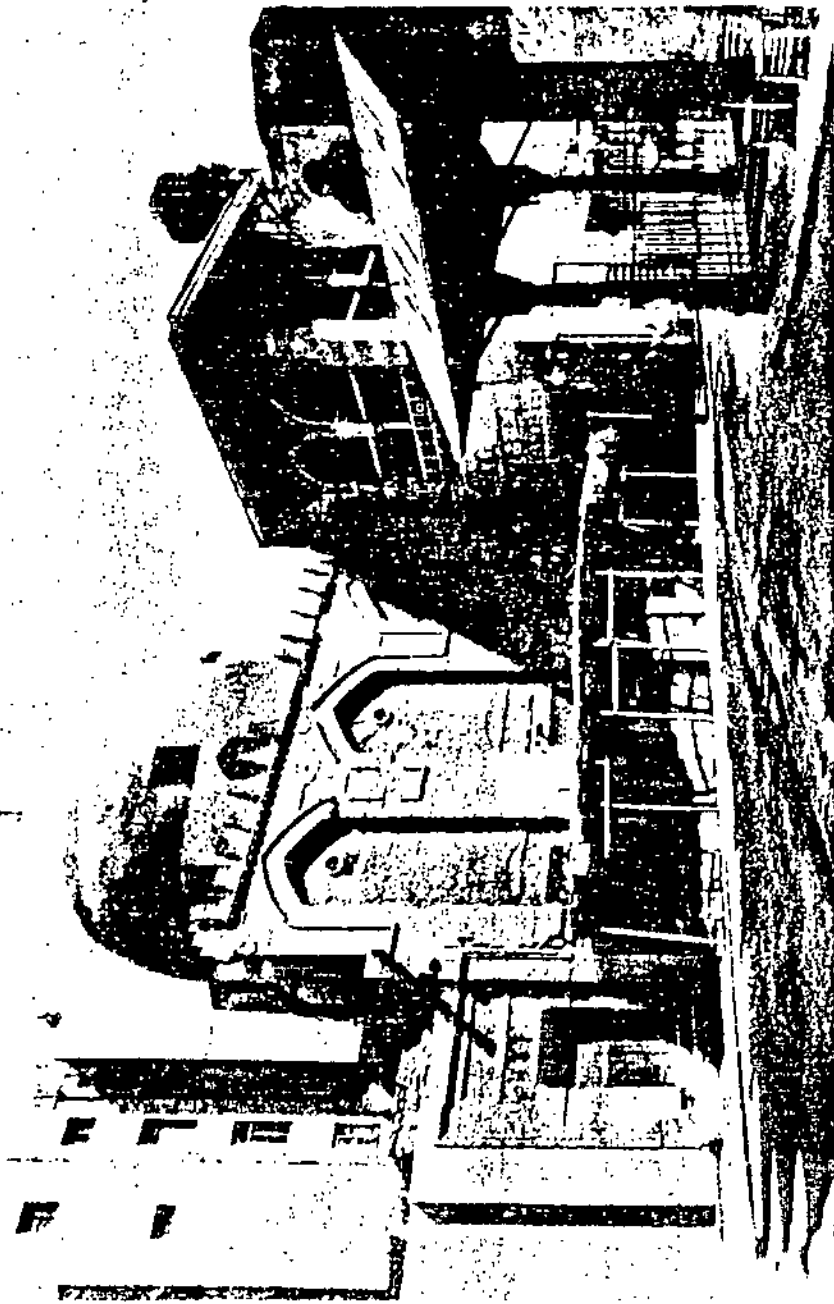


تمثال لفرعون في الهيكل

صورة من كتاب :

احمد فكرى ، مساحد القاهرة ومدارسها . الجزء الثاني : المصري الايوبي . القاهرة :

دار المعارف ، ١٩٦٩ .



معرض السالك نعيم الدين أيوب - منظر خارجي للقبلة والدخول .

صورت من كتاب :

احمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الثاني : العصر الايوبى . القاهرة :
دار المعارف ، ١٩٦٩ .

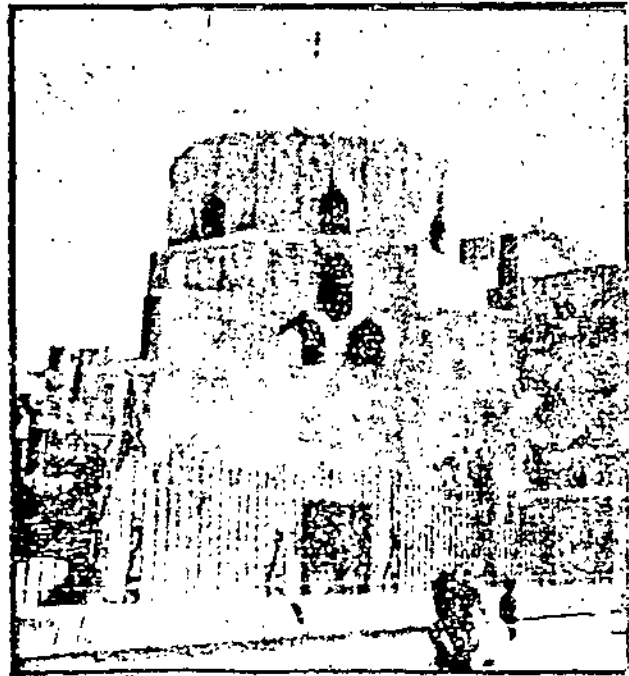
لوحة رقم (١٥)



مهرت من كتاب :

احمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الثانى : العصر الايوبي . القاهرة :

دار المعارف ، ١٩٦٩ .



قبة وصريح لشجرة العبد بالقاهرة

صور من كتاب :

احمد عطية الله . القاموس الاسلامي . المجلد الرابع . القاهرة : دار النهضة ، ١٩٧٦ .



Fig. 56.—Dinār of queen Shēger-el-durr,
Cairo, 1250.

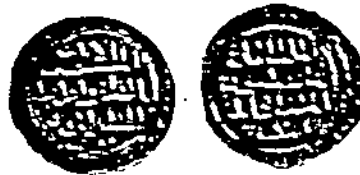
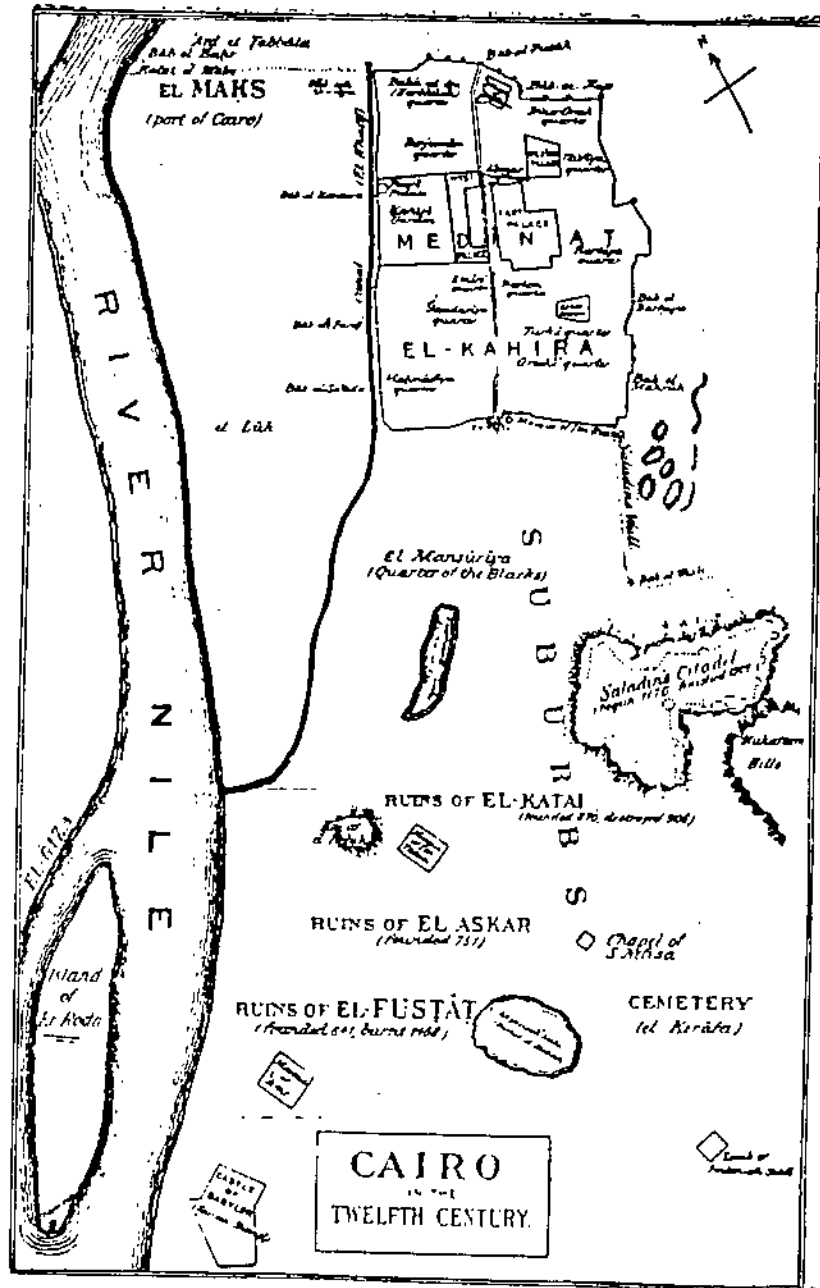


Fig. 57.—Dinār of Aybek, Alexandria,
1256.

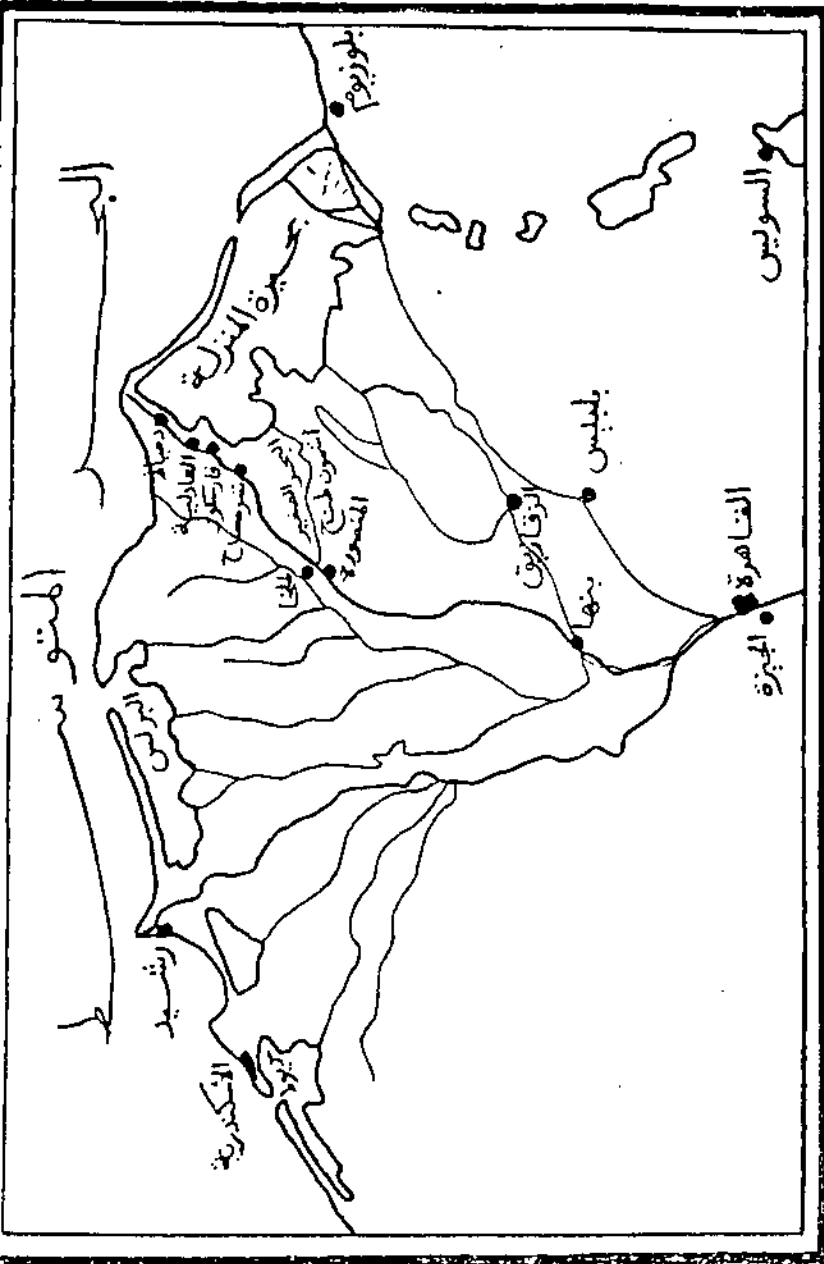
صورت من كتاب :

Lane-Poole, Stanely, A history of Egypt in the Middle Ages. London
Frankcass, 1968



صورت من كتاب

Lane-Poole, Stanely . Ahistory of Egypt in the Middle Ages. London
Frankcass, 1968



دلتا النيل أثناء حملة لوريس التاسع

صورت عن كتاب :

احمد مختار العبادي . قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام . بيروت : دار النهضة

العربية ، ١٩٦٩ .



الشام وآسيا الصغرى والعراق في عصر دولة المماليك

صورت من كتاب ١

احمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام . بيروت : دار النهضة العربية ١٩٦٩ .

صادر البحث

- ٠١ ابن اياس ، ابو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ - ١٥٢٤ م) بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط ٢ ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة ، ١٩٨٢ .
- ٠٢ البهاء زهير ، ديوان البهاء زهير ، بيروت : دار صادر ، ١٩٦٤ .
- ٠٣ ابن تغري بردي ، جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن عبد الله (ت ٨٧٤ هـ - ١٤٧٠ م) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة : وزارة الثقافة ، ١٩٦٣ .
- ٠٤ الحلبي ، سراج الدين احمد بن عبد الحي (ت ١١٢٠ هـ - ١٧٠٨ م) ، تحفة الاحباب لمن ملك مصر من الملوك والنواب ، ميكروظم ، مركز التوثيق والوثائق ، الجامعة الاردنية ، رقم ١١٦٣ .
- ٠٥ الحلبي ، ابن العماد (ت ١٠٨٩ هـ - ١٦٧٩ م) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط ٢ ، بيروت : دار المسيرة ، ١٩٧٩ .
- ٠٦ ابن خلدون ، ولي الدين ابو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ - ١٤٠٦) المعبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والمسلمين والبربر بيروت : مؤسسة جمال للطباعة ، ١٩٧٩ .
- ٠٧ الذهبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد بن قايمار (ت ٧٤٨ هـ - ١٣٤٨ م) ، ميكروفيلم ، مركز التوثيق والوثائق ، الجامعة الاردنية .
- ٠٨ سبط ابن الجوزي ، شمس الدين أبو العلاء فريونس بن خراؤغلي التركي ، (٦٥٤ هـ - ١٢٥٦ م) ، برآة الزمان في تاريخ الاعيان ، الهند ، ١٩٥٢ .

تابع مصادر البحث :

- ٠٩ ابن شاکر الکتبی ، محمد بن شاکر ، فوات الوفيات والذیل علیها ، تحقیق احسان عباس ، بیروت : دار صادر ، ١٩٧٣ .
- ١٠ ابوشامة ، شهاب الدین ابو القاسم عبدالرحمن بن اسماعیل الدمشقی ، (ت ٦٦٥هـ - ١٢٦٧م) ، کتاب الروضتین فی أخبار الدولتین النورية والصلاحية ، تحقیق محمد حلبی احمد ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ١١ الصفدی ، صلاح الدین خلیل بن آیک بن عبدالله (ت ٧٦٤هـ - ١٣٦٣م) ، الوافی بالوفیات ، دمشق ، المطبعة الهاشمية ، ١٩٥٩ .
- ١٢ ابن الطقطقی ، محمد بن علی (ت ٧٠٩هـ - ١٣٠٩م) ، الفخری فی الاداب السلطانية ، القاهرة : د ن ، ١٩٦٣ .
- ١٣ ابوالفداء ، اسماعیل بن علی بن محمود ، (ت ٧٣٢هـ - ١٣٣١م) ، المختصر فی أخبار البشر ، بیروت : دار المعرفة ، ١٩٦٠ .
- ١٤ القلقشندی ، شهاب الدین ابو العباس احمد بن علی (ت ٨٢١هـ - ١٤١٨م) ، صبح الاعشی فی صناعة الانساء ، القاهرة ، دار الکتب المصرية ، ١٩٦٥ .
- ١٥ الکندی ، ابو عمر محمد (ت ٣٥٥هـ - ٩٦٦م) ، الولاة والقضاة .
- ١٦ المتنبی ، ابو الطیب احمد بن الحسین (ت ٣٥٤هـ - ٩٥٦م) ، دیوان المتنبی ، بیروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٨ .
- ١٧ ابن مطرچ ، جمال الدین ابو الحسین یحیی بن عیسی (ت ٦٤٩هـ - ١٢٥١م) ، دیوان ابن مطرچ ، القاهرة .
- ١٨ المقرئ ، ابو العباس احمد بن محمد التلمسانی (ت ١٠٤١هـ - ١٦٣١م) ، نفع الطیب فی غصن الاندلس الرطب ، تحقیق محمد محیی الدین عبدالحمید ، القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٩٤٩ .

تابع مصادر البحث :

- ١٥٠ . المقرئى ، تقى الدين ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ - ١٤٤١ م) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ١٦٠ . ابن واصل ، جمال الدين بن عبد الله محمد بن سليم ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ميكرو فيلم ، مركز التوثيق والوثائق ، الجامعة الاردنية .
- ٢١٠ . اليونيني ، قطب الدين ابو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦ هـ - ١٣٢٦ م) ، ذيل مرآة الزمان ، الهند ، ١٩٥٤ .

مراجع البحث

١. المراجع العربي:

- ٠١ بروكلمان ، كارل ، تاريخ الشعوب الاسلاميه ، ط ٣ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦١ .
- ٠٢ الترمائني ، عبدالسلام ، الرق : ماضيه وحاضره ، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون (سلسلة عالم المعرفة ، ٢٣) ، ١٩٨٠ .
- ٠٣ حسن ابراهيم - تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط ٧ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٥ .
- ٠٤ ب . النظم الاسلاميه ، ط ١ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ .
- ٠٥ الخطيب ، محمد عجاج . لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ، ط ٥ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٠ .
- ٠٦ الزركلي ، خير الدين ، الاعلام ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ٠٧ زياده ، محمد مصطفى ، تراث الانسانيه . القاهرة : الدار المصريه للتأليف . د . ت . ج ٤ .
- ٠٨ سليمان ، احمد المعيد ، تاريخ الدول الاسلاميه ومعجم الاسر الحاكمة ، الجزء الثاني : القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩ .
- ٠٩ شافعي ، فريد محمود ، العمارة العربيه الاسلاميه : ماضيها وحاضرها . مستقبلها . الرياض . جامعة الملك سعود ، ١٩٨٢ .
- ١٠ الشنتاوي ، أحمد ، دائرة المعارف الاسلاميه ، القاهرة : دار الشعب ، ١٩٣٣ .
- ١١ عاشور ، سعيد ، الايوبيون والمماليك في مصر والشام ، ط ٢ ، القاهرة : دار النهضة العربيه ، ١٩٧٦ .

تابع المراجع العربية :

- ١٢ . العبادي ، أحمد مختار ، قيام دولة الماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية ،
١٩٦٩ .
- ١٣ . العريان ، محمد سعيد ، شجر الدر : قصة تاريخية ، القاهرة : دار المعارف ،
١٩٧٦ .
- ١٤ . العريني ، السيد الباز ، الماليك ، القاهرة : دار النهضة العربية ،
١٩٦٧ .
- ١٥ . عطية الله ، أحمد ، القاموس الاسلامي . المجلد الرابع . القاهرة : مكتبة
النهضة المصرية ، ١٩٧٦ .
- ١٦ . فكري ، أحمد ، مساجد القاهرة ومدارسها : العصر الايوبي ، ج ٢ ،
القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩ .
- ١٧ . كدالة ، عمر رضا ، أعلام النساء ، ط ٣ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٧ .

٢٠ المراجع الاجنبية:

1. Encyclopedias of Islam, New Edition, Vol. IV, Leiden, 1913-1934
2. Lane-poole, Stanley, A History of Egypt in The Middle Ages, London: Frank Cass, 1968